

صنّف
نفسك
بقلم
د . أحمد الزهراني



النسخة الإلكترونية الأولى

١٤٣٣هـ


صنّف
نفسك
بقلم
د . احمد الزهراني



بسم اللّه الرحمن الرحيم

طُبع هذا الكتاب قبل سنوات عدّة طبعات ، وقد لقي بحمداللّه استحسان الكثير، لسهولة مأخذه، وأهميّة فكرته، والتبسّط في عرضه، وقبل ذلك توفيق اللّه تعالى.

وهو في أصله ترجمة لفكرة حاولت بها أن اشرح لنفسي كيف يمكن أن أكون منتجاً في أمور الآخرة كما أكون منتجاً في أمور الدّنيا.

ووجدت أنّنا في أمر الآخرة نغفل استعمال التقنيات الإداريّة التي يفاخر بها اليوم كثيرون وهي موجودة في صميم تراثنا الإسلامي ، وجاءت عمليّة في سيرة النّبيّ ﷺ نفسه.

وتبيّن لي أنّ أهمّ عنصر ساهم في نجاح أيّ مشروع دنيوي أو أخروي هو التّصنيف والتمييز.

الحرص على معرفة خصائص الأشياء من حولي والمعطيات والظروف التّي تحيط بي كعوامل استطيع من خلال توظيفها كلّها الوصول إلى قمّة الأداء سواء في أمور الدّنيا أو الآخرة.



خاصّة أمر الآخرة ، كيف يمكن أن أصل إلى البذل في أمر الآخرة بأقصى ما يمكنني إلاّ بمعرفة الطرق الّتي أتاحها الإسلام ونوّعها لتناسب كلّ القدرات والظروف والخصائص لمن أراد السير إلى اللّه.

فكان هذا الكتاب اللطيف نتاج هذه القراءة السريعة في السنة النبوية اسأل اللّه أن ينفع بنسخته هذه كما نفع بأصله ، وصلّى اللّه على نبينا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم .



بين تصنيف النفس وتصنيف الآخرين

عن أبي سنان ، عن عمرو ، قال : " إذا شغلت بنفسك ذهلت عن الناس وإذا شغلت بالناس ذهلت عن ذات نفسك"



صنف نفسك



اشتغل كثير منّا بتصنيف النّاس، وتوزيع الألقاب، وتقسيم الفرق والأحزاب، ونسبة النّاس إليها، بعلم أحياناً، وبالظّنّ في أحيان كثيرة.

ولا شكّ أنّ تمييز أهل الباطل أمر مرغوب فيه شرعاً حتى يحذر النّاس منهم

وهو منهج السلف الصالح رحمهم اللّه، لكن ليس بهذا الشكل المُحدث الذي حوّل التّصنيف من وسيلة علميّة إلى غاية وشهوة، ولهذا رضي كثير منّا من أنفسهم بالتّصنيف السّلبي الّذي ليس وراءه عمل ولا ثمرة.

وشتّان بين فعالنا هذه وبين فعل السّلف الصّالح، فالفرق بيننا وبين السّلف فرق شاسع، بيننا وبينهم بون هائل طويل بطول ما يفصلنا عنهم من السنين والأيام، وقد أبان طرفاً منه ابن رجب رحمه الله في كتابه (فضل علم السلف على علم الخلف).



فالسلف قلّ كلامهم وكثر عملهم، وأمّا الخلف -من أمثالنا- فكثر كلامهم، وقلّ عملهم، فنزعت البركة من أوقاتهم وأعمالهم.

ولمّا كان العمل والآخرة هو مقصود السلّف الصّالح رحمهم الله فإنّهم كانوا يبدؤون بتصنيف أنفسهم قبل غيرهم ، فهم على معرفة أنفسهم أشدّ حرصاً من معرفة غيرهم، ومن ثمّ يشرعون في تحليلها، و البدء في علاجها، وذلك بتصنيف قدراتها وإراداتها، فيعمل كلٌّ حسب ما خلق الله وأوجده فيه ، وحسب ما أودعه الله وحباه له، فيستغلّ كلّ طاقة ومهارة وإبداع في سبيل تحقيق مرضاة الله، فلا تعجب من أنّ تلك القرون المفضّلة حوت فيها من المبدعين في كل مجال ما لا يحصره كتاب.

وكلّما تشعّبت الثقافات وتفرّعت فروع العلم ومجالات العمل كلّما عظمت الحاجة إلى التصنيف، ورأيت كيف يُستخدم في الإنتاج لا التخريب، في البناء لا في الهدم.



وقد عنّ لي أن أكتب هذه الكلمات داعياً نفسي إخواني أن يشتغل كلّ بخاصة نفسه فيعمل على إصلاحها، فإنّ هذا الدّخن والله ما كان ولم يكن له أن يكون لولا قدر من الله سبق، ثمّ فساد أنفسنا، وما أوضع الشّيطان خلالنا من الأمراض النّفسيّة والعوائق الّتي يشغلنا بها عن البناء والإنتاج.

وداعياً نفسي وإخواني أن يعرف كلّ منّا قدر نفسه، فلا يضعها موضعاً يزري بها فيه، كما لا يحمّلها ما لا طاقة لها به فيكلّف نفسه ما لم يهبه الله له، ويتشبّع بما لم يُعط فيكون كلابس ثوبي زور.

بل يعرف قدراته، ويحدد قصده، وهدفه، والوسائل الملائمة له اللازمة للوصول إلى الغاية المنشودة، على أن يكون ذلك كله في سبيل نيل الغاية العظمى والهدف الأسمى والأنبل وهو رضا الله سبحانه وتعالى، وهو المسؤول جل شأنه أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه، وأن يجعل كلامنا حجة لنا لا علينا، والحمد لله في الأولى والآخرة.



تأمل إبداع الخالق

.. إنّه تصنيف بديع

للألوان والحدود

والأشياء .. أبدعت

جمال الكون ودقّته

وإحكام صنعه ..

تبارك الله



ليس التّصنيف[1] بدعاً من القول أو العمل، بل قد جاء في سنّة المصطفى ﷺ وسيرته مع أصحابه الكثير من ذلك.

فإن النبي ﷺ كان قد عرف أصحابه وقدراتهم وطاقاتهم، فكان يضع كلّ واحد في الموضع الّذي ينتج فيه أكثر، حتّى ولو كان على حساب جانب آخر.

بل إنّي أزعم أنّه لم يمرّ على البشريّة إبداع في التصنيف كما أبدع فيه النّبيّ ﷺ وأصحابه

فعلى سبيل التمثيل: خصّص ﷺ بعض الصّحابة لكتابة الوحي، لأنّهم كتّاب ومهرة، وفيهم الأمانة على ما يكتبون، منهم عبد الله بن عمرو بن العاص، وزيد بن ثابت، ومعاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنهم.

---

(١) قال في القاموس: «الصّنف بكسر الصّاد وفتحها: النّوع والضّرب، وجمعه أصناف وصنوف... وصنّفه تصنيفاً: جعله أصنافاً وميّز بعضها عن بعض» أ.هـ. القاموس المحيط للفيروز آبادي (٤/ ٢٣٨) كما يُقال: صنّف الكتاب: أي ألّفه، على التّشبيه، وعلى هذا يكون تعلّق اللّفظ بموضوع البحث، إمّا على أساس تصنيف قدرات النّفس وتمييز صفاتها الإيجابيّة عن السلّبية لاستثمار الأولى وعلاج الأخرى، أو على أساس وضع الشخص نفسه في الموضع المناسب له حسب أصناف النّاس وأنواعهم، وكلاهما متساق مع اللّفظ.



وجعل بعض أصحابه لقيادة الجيوش؛ لمعرفتهم وخبراتهم الحربية، وحنكتهم في قيادة الحروب وتصريف شؤونها، ومن أشهرهم خالد بن الوليد، وأبو عبيدة عامر بن الجرّاح، وسعد بن أبي وقاص، رضي الله عنهم.

وبعض أصحابه كان متخصّصاً في الجانب الإعلامي: فالشّعر عليه حسّان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، وفي الخطابة ثابت بن قيس، وسعد بن عبادة، رضي الله عنهم.

وبعض أصحابه كان حافظاً، مواظباً، متفرغاً للعلم، لا يشغله عن ذلك مال ولا أهل، فهيّأه النبي ﷺ ليكون أميناً على السنّة جامعاً لها، وأشهرهم أبو هريرة وعبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

ومنهم من أوتي الفقه والقدرة على الفتيا: كالخلفاء الأربعة الّذين أُمرت الأمّة باتّباع سنّتهم، وابن عمر، وابن عمرو، وابن عبّاس، ومعاذ ابن جبل، وأبي ذر، وابن مسعود، رضي الله عنهم.



ومنهم من جمع القرآن وكان حجّة فيه: كزيد بن ثابت الأنصاري الّذي وكل إليه أبو بكر وعثمان جمع القرآن، كما كان منهم المتمكّن في القراءة المتقن لها، حتّى حثّ النبي ﷺ على أن يُقرأ القرآن على قراءته كعبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

ومنهم من كان ذا فطنة، وأمانة، وقدرة على سياسة النّاس، فكان يولّيهم أعمال البلاد: منهم أبو هريرة، والعلاء بن الحضرمي، وعلى، رضي الله عنهم.

ومنهم ذو القدرة على الإقناع والحوار والدّعوة: كمصعب بن عمير، وعلي بن أبي طالب، ومعاذ بن جبل، رضي الله عنهم[١].

ومنهم من كان ذا مكانة في المسلمين سناً، وقدراً، وعلماً، وإيماناً، فكانوا وزراءه وأهل استشارته، وهم خلفاؤه، رضي الله عنهم.

(١) تلاحظ هنا أن الثلاثة من الشباب المتصفين بالعلم، ولم يكن يشغلهم أهل ولا مال، حتى إن معاذاً رضي الله عنه لم يكن جاوز الخامسة والعشرين من عمره، وليس المراد من وصفهم بذلك أن غيرهم لم يكن به تلك الأوصاف، غير أنه ثبت عن عمر رضي الله عنه قوله: «من أراد الفقه فليأت معاذ بن جبل»، انظر سير أعلام النبلاء (١/ ٤٥٢).



ومن كلامه ﷺ الذي يدل على ما ملاحظته أساس التّصنيف، قوله : «أرحم أمّتي بأمّتي أبو بكر، وأشدهم في أمر الله عمر، وأصدقهم حياء عثمان، وأقرؤهم لكتاب الله أبي بن كعب، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»(١).

وقوله ﷺ : «لا تؤذوا خالداً فإنه سيف من سيوف الله صبه الله على الكفار»(٢).

وقوله أيضاً: «من أراد أن يقرأ القرآن غضاً طرياً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»(٣).

ومن أروعه حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مثل ما بعثني الله من الهُدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقيّة- أو طيبة – قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٨٤) والترمذي وصححه الألباني في الصحيحة،(ح ١٢٢٤).

(٢) أخرجه ابن حبان(ح٧٠٩١) ، وصححه الألباني في الصحيحة(١٢٣٧) وشاهده عند البخاري(ح٣٧٥٧).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٧، ٤٤٥)، وابن ماجه(ح١٣٨) وصححه الألباني في الصحيحة،(ح ٢٣٠١).

منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»[(١)].

قال البغوي رحمه الله «فالنبي ﷺ جعل مثل العالم مثل المطر، ومثل قلوب الناس فيه كمثل الأرض في قبول الماء، فشبه من تحمل العلم والحديث وتفقه فيه بالأرض الطيبة أصابها المطر فتنبت وانتفع بها الناس، وشبه من تحمله ولم يتفقهه بالأرض الصلبة التي لا تنبت ولكنها تمسك الماء فيأخذه الناس وينتفعون به»[(٢)].

[[[فكلٌّ من حاملِ العلم دون فقْه، وحامله الفقيه فيه؛ على خير]]]

والمتتبّع لتراجم العلماء والأئمّة يجد أنّ كثيراً من المحدّثين من أهل الرواية والنقل غير موصوفين بالفقه، ومع ذلك فلولا الله ثم ما تكبدوا من مشقة طلب الحديث، والسفر في ذلك، والسهر، ونسخ الكتب لضاع منا كثير من السنن.

(١) أخرجه البخاري (ح٧٩) ومسلم (ح٢٢٨٢).

(٢) شرح السنة (١/ ٢٨٩).



وليس التصنيف الذاتيّ قائماً على مجرّد الرغبة وحبّ المرء لمجال معين، كلا، بل يجب أن يكون قادراً على الإبداع والإنتاج فيه، بحيث لا يكون مجرد مقلد ومردد لعمل غيره، بل الإسلام يريد أن يكون كل مسلم أنموذجاً لوحده في إبداعاته وقدراته وعطاءاته، كالشعر مثلاً، فكلنا يحب الشعر ويتمنى أن ينظم الشعر، ولكن القليل منا يستطيع أن يكون شاعراً مبدعاً.

أقول هذا لأننا نرى كثيراً ممن يعجب بشخص ما يحبه ويحب أن يكون مثله، لكن قدراته لا تؤهله لأن يكون مثل محبوبه، فتضيع أيامه سدى في ما لا طائل وراءه، بل قد يصل به الحال إلى الإفساد في ما لا يحسن، وغاية ما يستطيع أن يكون نسخة مكررة ممن أحبه، وهذا خطأ.



ومن جميل هذا المعنى أن النبي ﷺ قال يوماً لزيد بن ثابت رضي الله عنه: « **أتحُسِنُ السريانية؟** » قلت: لا، قال: « **فتعلمها؛ فإنه تأتينا كُتُب** »، قال زيد: فتعلمتُها، في سبعة عشر يوماً» .

فماذا نسمي هذا الصنيع منه ﷺ ؟

لماذا لم يطلب ذلك من أبي بكر، أليس أحب إليه وأقرب من زيد؟ وكذلك الحال بالنسبة لعمر وعثمان وعلي، لماذا؟

والجواب: أنه عرف قدرة زيد رضي الله عنه، وفطنته، وقدرته على الحفظ والتعلم أكثر من غيره،فطلب منه ذلك، أليس هذا تصنيفاً ومعرفة بقدرات المتعلم والملتقي وأحواله؟

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٨٢)، وصححه الألباني في الصحيحة (ح١٨٧).

وليس المقصود من ذلك أن أبا بكر وعمر وعثمان وعلي لم يكونوا على قدرة زيد في الحفظ وسرعة التعلم ، بل المقصود أن زيداً اتصف بصفات تجعله مهيئاً لتنفيذ أمر النبي ﷺ في تعلم السريانية أكثر من غيره، فهو شاب صغير، حتى إن النبي ﷺ أمره بهذا مقدمه المدينة وسنُّ زيد يومها إحدى عشرة سنة .

وهذا الملحظ ميزه أبو بكر من زيد يوم أمره بجمع القرآن فقال له: أنت شاب عاقل لا نتهمك. فأين أُبى إذن وغيره؟ ألم يكونوا من حفاظ القرآن؟ بلى ولكن زيداً فاقهم في ذلك.

وشيء آخر مهم

إن ظروف زيد تسمح له بالتعلم أكثر من أبي بكر وعمر ، لانشغالهم بأمور أنفسهم من جهة وأمور الأمة مع النبي ﷺ ، كما أن زيداّ من أهل المدينة أي أنه مخالط لليهود فلا شك أنه يعرف بعض لهجاتهم، وهذا مشاهد ملموس تأثيره في سهولة تعلم اللغة ، وعامل السرعة أمر مهم عند النبي ﷺ ، وأنت ترى أن إتقان لغة أجنبية تحدثاً وقراءة وكتابة في نصف شهر أمر ليس بالهين.



وانظر بارك الله فيك إلى أبي ذر رضي الله عنه :

فقد أحب أن يتقرب إلى الله بأن يتولى ولاية للمسلمين، ونحن لا نشك في حسن نية أبي ذر الزاهد العابد الذي قال عنه ﷺ : «**ما أقلت الغبراء، ولا أظلت الخضراء، أصدق لهجة من أبي ذر**»(١).

أقول: لما جاء إلى النبي ﷺ يريد أن يتعبد الله بولاية للمسلمين، هل أجابه النبيّ ﷺ؟ انظر جوابه عليه الصلاة والسلام: «**يا أبا ذر، إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها**»(٢).

فقد بين له ﷺ أنه لا يستطيع القيام بمهام الإمارة، وليس المراد بضعفه الضّعف الحسّي،كلاّ، فقد كان أبو ذر في مقدمة المجاهدين مع النبي ﷺ، وإنما المقصود عدم تكامل الصفات اللازمة لإتقان هذه الوظيفة وأداء الحق فيها.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٣) وابن ماجه (ح١٥٦) وانظر الصحيحة للألباني (ح١٤٣٦و٢٣٤٣).

(٢) أخرجه مسلم (ح١٨٢٥).

قال الذهبي رحمه الله إيراده الحديث: «وقد قال النبي ﷺ لأبي ذر مع قوة أبي ذر في بدنه وشجاعته: «يا أبا ذر، إني أراك ضعيفاً»، فهذا محمول على ضعف الرأي، فإنه لو ولي مال يتيم لأنفقه كله في سبيل الخير، ولترك اليتيم فقيراً، فقد ذكرنا أنه كان لا يستجيز ادخار النقدين، والذي يتأمر على الناس يريد أن يكون فيه حلم ومداراة، وأبو ذر رضي الله عنه كانت فيه حدة فنصحه النبي ﷺ»[١].

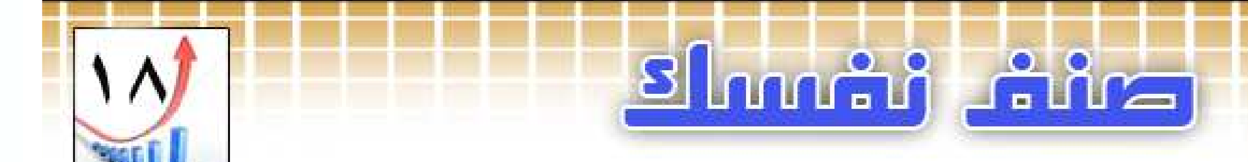
هذا هو التصنيف المنشود الذي نريده ونتمناه، أن يضع كل واحد منا نفسه في المكان الصحيح، ولا يتكلف ما لا يحسن، فإن «المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور»[٢].

وما ذكرناه عن النبي ﷺ قبل لا يفهم منه أن من وصفه النبي ﷺ بقدرة على أمر أو التفوق في صناعة يستلزم أنّ غيره من الصحابة كانوا خلواً من تلك الصفات، بل المراد أنهم يشتركون في أصل الصفة، وينفرد كل واحد في التفوق في جانب

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (ح٥٢١٩) ومسلم (ح٢١٣٠).



معين، وهذا لا يقدح في الأفضلية المطلقة لأبي بكر وعمر وعثمان وعليّ رضي الله عنهم من جهة، ولا يلزم منه القدح أو لزوم النقص في غير المذكور بصفة معينة من جهة أخرى، فوصف النبي ﷺ لخالد بأنه سيف من سيوف الله صبّه الله على الكفار، لا يلزم منه النقص في أبي بكر وعمر، بل تدل على تمرسه بفنون القتال والحرب، وخبرته الطويلة فيها، ولا شك أن للشيخين دراية كبيرة في ذلك، كما أن جميع الصحابة هم في الحقيقة سيوف صبهم الله على الكفار، غير أن تخصيص النبي ﷺ لخالد بهذا الوصف فيه دلالة على تميزه عن غيره، هذا أمر لا نشك فيه.

كيف ؟! والنبي ﷺ في معركة بدر نزل على مشورة غيره في اختيار الموقع الذي يفترض أن ينزل فيه جيش الصحابة، ولم يدل ذلك على لزوم نقص فيه ﷺ، فلكل صنعة أهلها وخبراؤها .

وشيء آخر في غاية الأهمّيّة، ألا وهو أنّه ﷺ لم يكن يُهدر أو يعطّل الاستفادة من جوانب التفوّق عند شخص مّا لحصول شيء من المبالغة أو الخطأ بسببها ، فخالد

ابن الوليد حصل منه شيء من ذلك، حتّى قال ﷺ: «اللهم إنّي أبرأ إليك ممّا صنع خالد»[1] وكان يقال فيه إنّ في سيفه رهقاً، ومع هذا لم يعزله النّبيّ ﷺ.

وكذلك عمر بن الخطّاب رضي الله عنه أفاد منه النّبيّ ﷺ ووظّف شدّته وغلظته في الحق، رغم إنّه رضي الله عنه كاد أن يَقتُل بين يدي النبيّ ﷺ أكثر من مرّة.

وقد تلقى التابعون وأتباعهم هذا الدرس عن الصحابة رضي الله عنهم جيداً، ووعوه، وطبقوه، فقد اهتم كثير منهم بجوانب معينة برزوا فيها، وكانوا حجة فيها مع تقصيرهم عن الكمال في غيرها.

نماذج

وأنا أذكر لك عدة أمثلة تفي بمقصودنا في مثل هذا المقام، وتدلّ على أنّهم أتقنوا فنّ التّصنيف والتّوظيف جيّداً:

١. عاصم بن بهدلة بن أبي النجود:

(١) أخرجه البخاري (ح ٤٣٣٩).



الإمام الكبير، مقرئ العصر، كما قال عنه الذهبي، كان حجة في القرآن،حتى قيل فيه: «ما رأيت أحداً أقرأ من عاصم»، وقيل: «كان رأساً في القرآن»، وقال الذهبي: «كان عاصم ثبتاً في القراءة».

ومع ذلك كان عاصم صدوقاً في الحديث، ليس هو من أهل هذا الشأن كما في القرآن، حتى قال الدارقطني: «في حفظه شيء»، وقال النسائي: «ليس بحافظ: أي للحديث».

٢. محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي المدني:

العلامة الأخباري، كان حجة في المغازي والسيرة، حتى قيل فيه:« هو أعلم الناس بها» ، وقيل: « لا يزال في الناس علم ما عاش محمد بن إسحاق »، وقيل : «كان في المغازي علامة»، ومع هذا فقد أمسك بعض العلماء عن الاحتجاج بحديثه، وقال الذهبي: وأما في أحاديث الأحكام فينحط حديثه إلى رتبة الحسن إلا فيما شذ فيه فإنه يعتبر منكراً



٣. الإمام أبو حنيفة رحمه الله:

النعمان بن ثابت، فقيه الملة،عالم العراق، كما قال الذهبي، قال ابن المبارك: «أبو حنيفة أفقه الناس»، وقال عنه الشافعي:«الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة».

ومع هذا فإنه رحمه الله في الحديث ليس بذاك، حتى قال فيه ابن المبارك نفسه:«كان أبو حنيفة مسكيناً في الحديث».

٤. مرة الطيب:



ويقال له: مُرّة الخير؛ لكثرة عبادته وخيره وعلمه، وهو مرة بن شراحيل الهمداني الكوفي، من أجلّة التابعين، وثقه الأئمة، وقيل: إنه سجد لله حتى أكل التراب جبهته.

ومع ذلك قال الذهبي:«ما كان هذا الولي يكاد يتفرغ لنشر العلم، ولهذا لم تكثر راويته، وهل يرد من العلم إلاّ ثمرته».



٥. عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب:

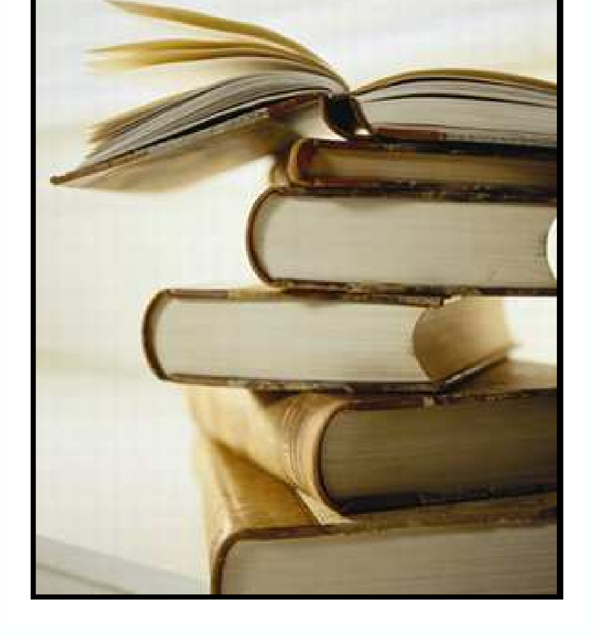
الإمام، العابد، الزاهد، الواعظ، مشهور بالعبادة والوعظ، حتى كان الرشيد يهابه ويبكي منه، وكان يحتسب حتى على الخلفاء، ثقة صدوق، ومع ذلك لم يكن في العلم من المكثرين ،ولم يشتهر به ، إنما اشتهر بالعبادة والنسك .

وهذا قليل، بل لو تتبعت سير العلماء لوجدت الغالبية العظمى اشتهروا بجانب معين على حساب غيره، وهذا لأنهم عرفوا أين يضعون أنفسهم رحمهم الله جميعاً.

ومن هذا ما ذكره ابن عبد البر أن عبد الله العمري هذا كتب إلى مالك يحضه على الانفراد والعبادة كما فعل هو، فكتب إليه مالك رحمه الله: «إنّ الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فرب رجل فُتح له في الصلاة ولم يُفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الصدقة ولم يفتح في الصوم، وآخر فتح له في الجهاد، فنشر العلم من أفضل



أعمال البر، وقد رضيت بما فتح لي فيه، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير»[١].



وهذا هو الفقه بعينه !

وقال الذهبي رحمه الله مدافعاً عن ضعف عاصم بن بهدلة: « وما زال في كل وقت يكون العالم إماماًفي فن مقصراً في فنون، وكذلك كان صاحبه حفص بن سليمان ثبتاً في القراءة واهياً في الحديث، وكان الأعمش بخلافه ثبتاً في الحديث ليناً في الحروف...»[٢].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٨/ ١١٤).

(٢) المرجع السابق (٥/ ٢٦٠).

صنّف نيّتك !

قال ﷺ : إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه





وهذه الخطوة هي الأصل الذي ستبني عليه ما بعده، فهي أساس البناء ونقطة الانطلاق، وهي التي تحكم أعمالك، وتميز الحق من الباطل فيها، كما أنها هي التي تحدد الأولويات في حياتك وسيرك، **فما هي حقيقة النية؟**

المقصود بالنية السببُ الباعث لك على عمل ما.

فسائل نفسك دوماً: ما هي نيتك؟ ومن تقصد بأعمالك؟

إن الأعمال التي يعملها الإنسان في حياته الدنيا قسمان

الأول: عبادات شرعها الله تعالى يتقرب بها العبد إليه، لولا الشرع ما كانت عبادة، أو بمعنى آخر فإنها على صفاتها الشرعية لا يفعلها إلا من أراد التعبد بها، ولا تفعل من قبل العادة البشرية، كالصلاة، والصوم، والزكاة، والحج، وغيرها من أنواع العبادات التي يبتغى بها وجه الله وكرامته.



والثاني: عادات يفعلها الإنسان بمحض فطرته وحاجته الدنيوية قبل ورود الشرع، كالأكل، والشرب، والنكاح، والبيع، والشراء، والسفر، ونحوه.

وهذا القسم لا يحتاج إلى نيّة لثبات صحته أو جوازه، وإنما يحتاج النية فقط في ترتب الأجر عليه.

وأما القسم الأول فإنه يحتاج إلى النية في عدة اتجاهات،.

فلا بد من نية لتمييزه من العادات، كالذي يغتسل، قد يكون لرفع جنابة، فهذه عبادة، وقد يكون قصده النظافة فهذه عادة، فلابد من تحديد قصده بالغسل.

ثم هو يحتاج النية؛ لترتب الثواب عليها، وهذه مركبة من نيتين أو قصدين:

أحدهما: إرادة وجه الله تعالى، وهو الإخلاص، قال تعالى :

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠].

والآخر: طلب الأجر في الآخرة لا الدنيا، وهو الحسبة:



﴿وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾ [آل عمران:١٤٥].

وبناء على ذلك فإنّ أوّل خطوة في سيرك إلى الله أن تحدّد نيتك وقصدك:

هل الذي يحكم أعمالك كلها بقسميها هو إرادة الله تعالى والدار الآخرة؟

أم أنك تريد أن تعمل أعمال الآخرة للآخرة وأعمال الدنيا للدنيا؟

أما الأولى: فإنها درجة الأنبياء والصالحين، وهي درجة أولي العزم من المؤمنين الذين عرفوا أن الدار دار فناء لا بقاء، وأنها دار مرور وعبور لا دار قرار، فطوعوا حياتهم كلها لله، عباداتهم وعاداتهم، كما قال تعالى:

﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢].

هذا هو معنى الآية، ليس معنى ذلك أن المؤمن لا يعمل للدنيا، كلاّ؛ المؤمن يعمل للآخرة والدنيا، لكن كل ذلك القصد فيه لله، فهو يصلي لله، ويصوم لله، ويزكي ويحج لله، كما أنه يأكل ويشرب يريد وجه الله، وإذا تاجر يريد وجه الله،

وإذا عمل عملاً دنيوياً ابتغى به وجه الله، بل إنه يأتي أهله فيكون له أجر إذا أراد به وجه الله.

فعن أبي ذر أن النبي ﷺ قال: «وفي بُضع أحدكم صدقة»، قلنا: يا رسول الله، يـأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟! قال: «أرأيتم لو وضعها في غير حل أكان ذلك وزر؟» قالوا: بلى، قال: «فكذلك لو وضعها في حلٍ له أجر»[1]، وفي رواية عند الإمام أحمد: «فتحتسبون الشر ولا تحتسبون الخير؟!»[2].

وفي النهاية يكون مماتُه لله رب العالمين، أي يكون موته شهادة في سبيل الله، أو يموت وهو يرجو الله في موته شهادة في سبيل الله، أو يموت وهو يرجو الله في موتته فيكون له أجر.

هذه هي حياة المؤمن من أهل هذه المرتبة العالية، فتكون حياتهم وأوقاتهم، صحوهم ومنامهم كله أجر، هذا هو والله الاستثمار الحقيقي: استغلال لكل لحظة ودقيقة من عمر الإنسان لا تضيع هباء.

---

(١) أصله عند مسلم (ح١٠٠٦).

(٢) مسند أحمد (٥/ ١٥٤، ١٦٧).

ولم لا والله تعالى يسر السبل المعينة وقبل من العامل مجرد النية إن عجز عن العمل، حتى كان معاذ رضي الله عنه يقول: «إنّي لأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي»[١].

أي أنوي الخير وأرجو الأجر من الله بنومتي، لأني أستعين بها على النشاط للطاعة والعبادة وأداء الحقوق، كما أنوي الخير وأرجو الأجر بصحوي وعملي فيه الخيرات.

وهذا يعني أنّ النّيّة الصّالحة تقلب الحياة كلّها من الدّنيا إلى الآخرة، فيكون الإنسان بجسده وعمله في الدّنيا، وبنيّته وقلبه في الآخرة.

وفي سبيل تصحيح النية، وتحقيق هذه المقامات تعب الصالحون، وتنافس المتنافسون، حتى قال أحد الصالحين: «أعز شيء في الدنيا: الإخلاص، وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي، فكأنه ينبت على لون آخر».

(١) أخرجه البخاري (ح٤٣٤١)، ومسلم (ح١٧٣٣).



وقال جعفر بن حيان رحمه الله: «مِلاكُ هذه الأعمال: النيات، فإن الرجل يبلغ بنيته ما لا يبلغ بعمله».

وعن يحيى بن أبي كثير، قال: «تعلّموا النية، فإنها أبلغ من العمل».

وعن زبيد اليامي، قال: «انْو في كل شيء تريده الخير، حتى خروجك إلى الكناسة» أي: مرمى القمامة.

وعنه رحمه الله قال:«يسرُّني أن يكون لي في كلّ شيء نيّة، حتى في الأكل والنوم».

وعن داود الطائي، قال: «رأيت الخير كله إنما يجمعه حسن النية، وكفاك بها خيرا وإن لم تنصب».

وقال كذلك: «البرّ همّة التقيّ، ولو تعلقت جميع جوارحه بحب الدنيا، لردته يوما نيته إلى أصله».



وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول:«تعوذوا بالله من خشوع النفاق، قيل: ما هو؟ قال: أن يرى الجسدُ خاشعاً والقلبُ ليس بخاشع».

وأما المرتبة الثانية فهي حال أكثر الناس، فالواحد منّا يعمل بكافة العبادات التي أوجبها الله عليه، وهو مع ذلك يعمل أعمال الدنيا ويبتغي من فضل الله لكن نيته في ذلك إصلاح دنياه.



فإن كنت من أهل المرتبة الثانية فلا تثريب عليك إذا التزمت بشروط السلامة وهي كما يلي:

أولاً: الموازنة

فإن الاشتغال بالدنيا كثيراً ما يؤدى إلى إهمال العمل للآخرة، وهذا العمل المطلوب للآخرة حده الأدني هو العمل بالفرائض وترك المناهي، وبذا تكون قد حققت السلامة، يقول اللّه تعالى :

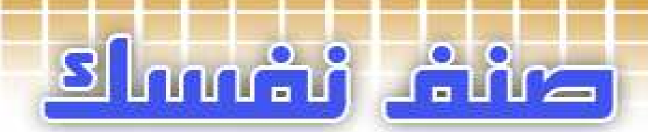
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾[المنافقون:٩].

قال الحسن البصري رحمه الله: «ذكرُ الله: جميع الفرائض».

وهذا الحد الأدنى دل عليه ما رواه الإمام البخاري رحمه الله، عن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد، ثائر الرأس، يسمع دوي صوته ولا يفقه ما يقول حتى دنا، فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «خمس صلوات في اليوم والليلة»، فقال: هل علي غيره؟ قال: «لا، إلا أن تطوع، قال رسول الله ﷺ: «وصيام رمضان»، قال: هل علي غيره؟ قال: «لا، إلا أن تطوع»، قال: وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة، قال: هل عليّ غيرها؟ قال: «لا، إلا أن تطوّع»، **قال**: فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص، قال رسول الله ﷺ: «أفلح إن صدق»[(١)].

وهذا يدل على أن الإتيان بالفرائض وترك المنهيات هو الحد الأدنى للفلاح

(١) أخرجه البخاري (ح٤٦) ومسلم (ح١١).





فلا يجوز بحال أن يطغى الاشتغال بالدنيا على صاحبه فيؤدي به إلى ترك بعض الفرائض كالتساهل في الصلاة أو الصوم، أو النقص من الزكاة، أو الوقوع في بعض المنهيات في سبيل الدنيا، كالتعامل في الربا، أو الغش، أو نحو ذلك من المعاملات المحرمة.

ومن التوازن المطلوب أيضاً أن لا يلهيك المال وجمعه عن رعاية الأولاد، وأصحاب الحقوق، كالوالدين والأرحام، فإن لكلٍ حق فأعط كل ذي حقّ حقّه.

وليس هذا الّذي ذكرناه بالأمر الهيّن إذا لاحظنا كثرة المنشغلين بالدّنيا من أهل الصّلاح وطغيانها عليهم، بل كثير من طلاّب العلم اشتغل بالمال وجمعه وإنفاقه عن العلم والتعليم والحسبة في بثّه، **عن الأعمش أنّ رجلاً أعطاه مالاً يخرج به إلى مائة يشترى به زعفراناً قال: فذكرت ذلك لإبراهيم فقال: «ما كانوا يطلبون الدنيا هذا الطلب»**.

وعن عبيد الله بن شميط قال: سمعت أبي يقول: «يعمد أحدهم فيقرأ القرآن، ويطلب العلم، حتّى إذا علمه أخذ الدّنيا فضمّها إلى صدره، وحملها على رأسه،



فنظر إليه ثلاثة ضعفاء : امرأة ضعيفة، وأعرابي جاهل، وأعجميّ، فقالوا : هذا أعلم بالله منا لو لم ير في الدنيا ذخيرة ما فعل هذا، فرغبوا في الدنيا وجمعوها» وكان أبي يقول فمثله كمثل الذي قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل:٢٥].

وعن يحيى بن يمان قال : سمعت سفيان الثوري يقول :«العالم طبيب الدين والدراهم داء الدين فإذا جذب الطبيب الداء إلى نفسه فمتى يداوي غيره».

وعن سعيد بن محمد قال كان من دعاء طاووس :«اللهمّ احرمني كثرة المال والولد، وارزقني الإيمان والعمل».

ثانياً: لابد أن يكون عملك الدنيوي مضبوطاً بضابط الكتاب والسنة

فلا تعمل في عمل محرم[(١)]، ولا تُعن على عمل محرم[(٢)]، ولا تستثمر مالك في عمل محرم؛ لأن ذلك سيؤدي إلى اختلال الميزان ورجحان



(١) فلا تكُ موظفاً في بنك ربوي مثلاً أو قناة فضائية غير إسلامية.

(٢) المقصود به العمل غير المباشر كالدعاية للمحرم مثلاً أو تعهدات صيانة أدوات التقاط البث المباشر.

الخسارة على الربح -أعني خسارة الآخرة-، ثم إن العمل في الحرام سبب لرد الصدقة والزكاة فلا يقبلها الله من صاحبها، وسبب أيضاً في عدم استجابة الدعاء، وكفى بهذه قاصمة؛ إذ معناه انقطاع الصلة بالله، فيكون آكل الحرام والبهائم سواء يرزقه الله كما رزقها، إلا أن البهائم لا حساب عليها وأما ذاك فمرهون بذنبه، ومقطوع الصلة بربه تعالى.



قال ﷺ: «إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً.. ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث، أغبر، يمد يديه إلى السماء: يارب، يارب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي حرام،فأنى يستجاب له»[(١)].

ثالثاً: احذر أن يكون مالك عوناً للكفر أو حرباً على الإسلام

ولهذا صور يقع فيها البعض بقصد ودون قصد:

---

(١) أخرجه مسلم(ح١٠١٥).

فمن ذلك تفضيل السلع التي ينتجها الكفار، وعدم دعم الإنتاج المسلم.

ومنه استخدام العمالة الكافرة، والإعراض عن العمالة المسلمة.

ومنه الاتجار في سلع دعائية لصالح العدو الكافر.

وهو أمر مقصود للشارع الحكيم، ومن ذلك أن أبا موسى الأشعري رضي الله عنه استعمل كاتباً نصرانياً، فقدم على عمر الفاروق رضي الله عنه فأعجب عمر ما رأى من حفظ الكاتب، فقال لأبي موسى الأشعري:قل لكاتبك يقرأ لنا كتاباً- وكانو في المسجد- فقال:إنّه نصراني لا يدخل المسجد، فانتهره عمر رضي الله عنه وهمّ به، وقال:



«أما وجدت في أهل الإسلام من يكتب لك،لا تكرموهم إذ أهانهم الله، ولا تدنوهم إذ أقصاهم الله،ولا تأتمنوهم إذ خونهم الله»(١)

(١) السنن الكبرى للبيهقي(١/ ٢١٦).



رابعاً: احرص على تعلم الأحكام الشرعية التي تخص عملك أو أعمالك

وعليك بكثرة الاتصال بالعلماء وطلاب العلم، واستشارتهم فيما تعزم عليه من أعمال، فقد يرون ما لا ترى، قبل أن تقدم على أمر فيه مأثم فلا تستطيع المواصلة فيه إلا بخسارة، ولن تكلفك الاستشارة شيئاً.







﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾

[الكهف:٢٨]



هي المقصد الأسمى بكلّ عمل ابن آدم ، وهي علّة الوجود الإنساني أصلاً ، وكلّ قول وعمل لا يزيدك عبوديّة لله تعالى فهو خسارة ، وكلّ وقت يمر عليك لا تزداد فيه عبودية لله فهو خسارة.

والعبادات كثيرة، قد لا يستطيع الواحد منّا بلوغ أربه منها كلّها ، إمّا لعجزه وإمّا لعدم ملائمتها لظرفه الحياتي الخاص ، وإمّا لثقلها على نفسه، وإن كان لكلّ منها مترية دنيا لا يجوز لعبد أن ينقص منها وهي مرتبة الفريضة، ومرتبة قصوى لا حدود لسقفها وهي النافلة منها، وكل مرتبة منها عبوديّة خاصّة تتحقّق بها، فإذا لم يستطع العبد الإلمام بها فيلزم منها باباً يتوافق يرتاح لها وتحبّه نفسه ويقدر على الإيلاغ فيه.



الصّلاة

فمن أهمّ العبادات وأجلها **الصلاة** ، فهي صلة العبد بربه، وهي الحبل الذي يستمسك به من أراد النجاة، وهي باب كل خير، وتركها مفتاح كل شر، فإن

العبد ما دام يصلي فأمره قريب، وعاقبته بإذن الله إلى خير،وإن كان تاركاً لها فأمره بعيد، وعاقبته إن لم يتداركه الله برحمة إلى وبال وخسارة ما بعدها خسارة.

وقد عظّم الله أمر الصلاة جداً، وذكرُها في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ لا يحصى، قال تعالى:

﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾[البقرة:٤٥].

وقال تعالى:

﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨].

وقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾[النساء:١٠٣].

وقال تعالى :

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم:٥٩].



وقال تعالى:

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[الماعون:٤-٥].

وقال ﷺ: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر»(١).

وقال أيضاً في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه مرفوعاً: «خمس صلوات افترضهن الله تعالى، من أحسن وضوءهن، وصلاهن لوقتهن، فأتم ركوعهن وخشوعهن، كان له على الله عهد أن يدخله الجنة، ومن لم يفعل فليس له على الله عهد، إن شاء غفر له وإن شاء عذبه»(٣).

---

(١) أخرجه أحمد(٢/٣٤٦)، والترمذي، (ح٢٦٢١)، وابن ماجه (ح١٠٧٩) ، وصححه الألباني في صحيح الترغيب(ح٥٦٤).



وتارك الصلاة للعلماء في كفره كفراً أكبر قولان، مما يدل على خطورة ترك الصلاة، الأمر الذي يتنافى مع فعل أغلب الناس اليوم، نسأل الله لنا ولهم الهداية.

فإذا كنت ممّن حُبّب إليه الصلاة فهنيئاً لك ، فإنّها لا تُحبّب إلاّ لسليم القلب، **فحافظ أولاً على المكتوبات**، وأدّها كما افترضها عليك، بوضوئها، وفي وقتها، مع المسلمين جماعة، قال ﷺ:«صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة»[(١)].

وو عد ﷺ من حافظ عليها جماعة مبكراً لها بالبراءة من النفاق ومن النار، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ:«من صلّى لله أربعين يوماً في جماعة يدرك التكبيرة الأولى كتبت له براءتان: براءة من النار، وبراءة من النفاق»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري(ح٦٤٥)، ومسلم(ح٦٤٩).

(٢) أخرجه الترمذي(ح٢٤١) وصححه الألباني في بحث قيم، السلسلة الصحيحة،(ح ١٩٧٩و٢٦٥٢).



وأما إحسان الوضوء لها فجاء فيه قوله ﷺ:«ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط»[1].

وقال ﷺ:«الطُّهور شطر الإيمان»[2].

وخرج يوماً على أصحابه فرأى رجلاً منهم لم يحسن أن يوصل الماء إلى عقبه، فنادى فيهم: «ويل للأعقاب من النار» ثلاثاً

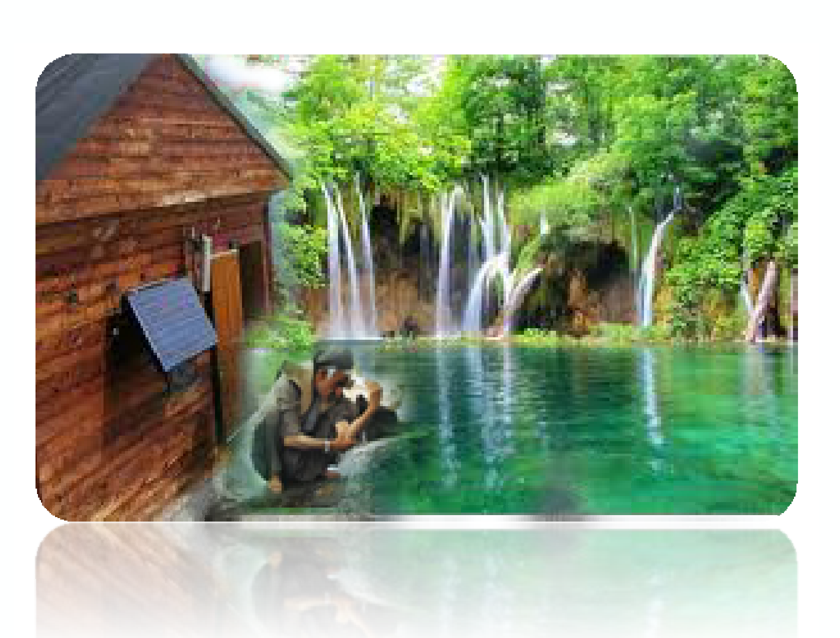


(١) أخرجه مسلم(ح ٢٥١).

(٢) أخرجه مسلم(ح ٢٢٣).

(٣) أخرجه البخاري(ح ٦٠) ومسلم(ح ٢٤١) والأعقاب: جمع عقب، وهو مؤخرة القدم.

وقد مثَّل النبي ﷺ للصلوات الخمس بأحسن مثلٍ فقال:«أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يُبْقى من دونه شيئاً، قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا»[1].



ثم بعد ذلك تدّرج في زيادة عدد ركعاتك في اليوم والليلة، **فحافِظ على السنن الرواتب وخصوصاً سنة الفجر**، فإن النبي ﷺ يقول:

«ما من عبد مسلم يصلي لله كل يوم اثنتي عشرة ركعة تطوعاً غير الفريضة إلا بنى الله له بيتاً في الجنة»

(١) أخرجه البخاري(ح ٥٢٨) ،ومسلم(ح٦٦٨).

(٢) أخرجه مسلم(ح ٧٢٨).

ثم حافظ على صلاة الوتر، وأقلها ركعة، فإن النبي ﷺ لم يكن يدعها ولا ركعتي الفجر سفراً ولا حضراً، وقال:

«إن الله زادكم صلاة فحافظوا عليها وهي الوتر».

وكان ﷺ يقول: «يا أهل القرآن أوتروا»



وإذا استطعت أن تقوم في الليل فتصلي فيه ما قدر لك، ثم توتر في آخره فهو أفضل، وهو فعله ﷺ.

وقد امتدح الله من هذا فعله فقال:

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ۝١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ۝١٦ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٨].

(١) أخرجه خرجه أبو داود (ح١٤١٧) وابن ماجة (ح١١٧٠)، وانظر ما قبله.

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٧) وانظر الإرواء للألباني،(ح ٤٢٣).

وإن لم تستطع فصلّ وِتْرك قبل أن تنام، وهي وصية النبي ﷺ لأبي هريرة رضي الله عنه كما قال: «أوصاني خليلي بثلاث: صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام»(١).



ثم بعد ذلك عليك بصلاة الضحى، فإنها صلاة الأوابين، كما ثبت عنه ﷺ، وأفضل وقتها إذا اشتد الضحى وحرارة الشمس، وهي من ركعتين إلى ثمان، قال ﷺ: «يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة،

---

(١) أخرجه البخاري (ح ١٩٨١) ومسلم (ح ٧٢١).

وأمرٌ بالمعروف صدقة، ونهيٌ عن المنكر صدقة، ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى»[١].

ثم بعد ذلك إن استطعت أن تكون مثل بلال رضي الله عنه فلْتهْنك الجنة، قال ﷺ لبلال يوماً: «حدثني بأرجى عمل عملته عندك منفعة في الإسلام، فإني قد سمعت الليلة خشفة نعليك بين يدي في الجنة»، فقال: ما عملت عملاً في الإسلام أرجى عندي منفعة أني لم أتطهر طهوراً تاماً في ساعة من ليل أو نهار إلا صليت لربي ما كتب لي أن أصلي[٢].



وفي حديث بريدة رضي الله عنه أنه ﷺ قال له: «يا بلال بم سبقتني إلى الجنة؟ ما دخلت الجنة قط إلا سمعت خشخشتك أمامي»، فقال بلال: يا رسول الله، ما

---

(١) أخرجه مسلم (ح ٧٢٠).

(٢) أخرجه البخاري (ح ١١٤٩) ومسلم (ح ٢٤٥٨).



أذّنت قط إلا صليت ركعتين، وما أصابني حدث قط إلا توضأت، ورأيت أنّ لله عليّ ركعتين فأركعهما، قال رسول الله ﷺ: «بهما»(١).

وإن شئت فكن رفيق النبي ﷺ في الجنة، فقد قال النبي ﷺ لربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه: «سَلْ»، فقال: أسألك مرافقتك في الجنة، فقال: «أو غير ذلك؟» فقال:هو ذاك، فقال رسول الله ﷺ: «فأعنّي على نفسك بكثرة السجود»(٢).

الصّوم

فإن لم يكن لك على الصلاة جهد فعليك بالصوم، فهو من أجل القربات وأعظم الحسنات، حتى إن الله تعالى ليقول:

> «كل عمل ابن آدم له، إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به».

---

(١) أخرجه أحمد(٥/ ٣٥٤)، والترمذي(ح ٣٦٨٩) وصححه الألباني في صحيح الترغيب(ح٢٠١).

(٢) أخرجه مسلم (ح٤٨٩).

(٣) أخرجه البخاري(ح٥٩٢٧)، ومسلم(ح٤٤٥١).



وقال ﷺ: «لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»[١].

فأحْسن صوم رمضان، و أقبل فيه على العبادة والذكر، واجتنب المحرمات، واحرص فيه على تلاوة القرآن، والإكثار من الذكر والصدقة؛ لأن ذلك من حسن وتمام صوم الشهر المكرم،وقد قال ﷺ: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»[٢].



ثم احرص بعد ذلك على صيام النفل: صوم ثلاثة أيام من كل شهر، وقال بعض العلماء إنّها أيام البيض، الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر ، سميت بذلك لضيائها بسبب اكتمال القمر فيها .

---

(١) المرجع السابق.

(٢) أخرجه البخاري (ح٣٨)، ومسلم (ح ٧٦٠).

وكذلك صوم يومي الاثنين والخميس، فإنّ الأعمال تعرض على الله فيهما، فاحرص أن تكون صائماً فيهما، كما كان يحرص ﷺ[(١)].

فإذا أعانك الله واستطعت أن تزيد على ذلك فافعل، كالإكثار من الصوم في الشهور المستحبة كشهر محرم، وقد قال ﷺ: «**أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم**»[(٢)].

وكذلك شهر شعبان، قالت عائشة رضي الله عنها: «**لم يكن رسول الله ﷺ في الشهر من السنة أكثر صياماً منه في شعبان**»[(٣)].

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٦٨) وابوداود (ح ٤٩١٦) الترمذي (ح ٧٤٧) وانظر الإرواء (٤/ ١٠٢).

(٢) أخرجه مسلم (ح ١١٦٣).

(٣) أخرجه البخاري (ح ١٩٦٩)، ومسلم (ح ٧٨٢).



وأما إن بلّغك الله منازل الصفوة فكن مثل نبي الله داود، يصوم يوماً ويفطر يوماً، فإنك إن كتبت من الصائمين دخلت من مدخلهم، كما ثبت عنه ﷺ أنه قال: «إنّ بالجنة باباً يقال له الريان يدخل منه الصائمون يوم القيامة، لا يدخل منه أحد غيرهم قال: أين الصائمون؟ فيقومون لا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه أحد»(١).

الحجّ والعمرة

فإن حباك الله صحة ومالاً فأكثر من الحج والعمرة، ففيهما أجر عظيم، وهما من أعظم أسباب دخول الجنة، كما أن الحج من أركان الإسلام الخمسة فلا يجوز التباطؤ في القيام به، قال ﷺ:

«بُني الإسلام على خمسٍ: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت»

---

(١) أخرجه البخاري (ح ١٨٩٦)، ومسلم (ح ١١٥٢).

(٢) أخرجه البخاري (ح٨)، ومسلم (ح١٦).

وكان عمر رضي الله عنه يقول: «من أطاق الحج فلم يحج فسواء عليه مات يهودياً أو نصرانياً»(١).



وفي الصحيح عنه ﷺ: «تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد»(٢).

وقال ﷺ عن ربه تعالى :

«إنّ عبداً أصححتُ له جسمه، ووسعت له في المعيشة، يمضي عليه خمسة أعوام لا يفدُ إليّ لمحْروم»

ومن مات في الحج محرما فله فضل، جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما رجل واقف مع رسول الله ﷺ بعرفة إذ وقع من راحلته فأقصعته، فقال

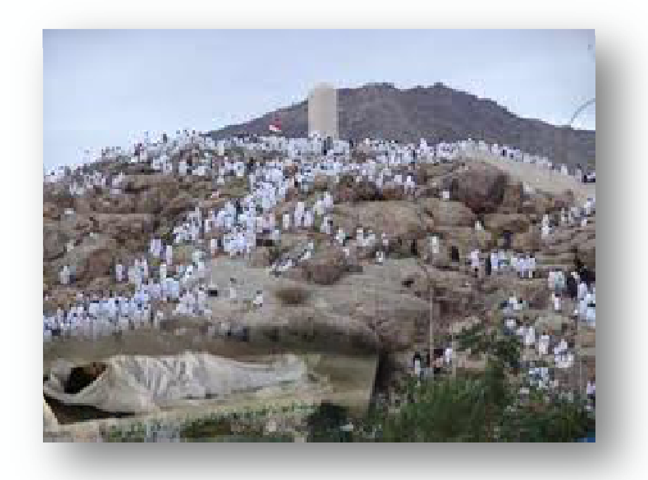
---

(١) تفسير ابن كثير(١/ ٣٩٥).

(٢) أخرجه أحمد(١/ ١٢٥)، وصححه الألباني، انظر السلسلة الصحيحة،(ح ١٢٠٠).

(٣) أخرجه ابن حبان، (ح ٣٧٠٣)، وعبد الرزاق في المصنف، (ح ٨٨٢٦)، وانظر الصحيحة للألباني(ح ح ٨٨٢٦).

رسول الله ﷺ: «اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه في ثوبين، ولا تحنطوه، ولا تخمروا رأسه، فإن الله يبعثه يوم القيامة ملبياً»(١).



ذِكرُ الله

ومن أعظم ميادين العبادات العظيمة ذكرُ الله تعالى، فقد جاءت فضائله المشهورة في الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة:١٥٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران:١٩١].

---

(١) أخرجه البخاري (ح ١٢٦٥).



وقال تعالى عن نبيه يونس عليه السلام:

﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات:١٤٤].

وأثنى سبحانه على الملائكة فقال:

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[الأنبياء:٢٠].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «**ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم، فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟**» قالوا: بلى، قال: «**ذِكْرُ الله تعالى**»(١).

---

(١) أخرجه أحمد: (٥/ ١٩٥)، والترمذي (ح٣٣٧٤)، وابن ماجه (ح٣٧٩٠) والحاكم ١/ ٤٩٦، وصحّحه ووافقه الذهبي، والوَرِق هو الفضّة.

كما جاء رجل للنبي ﷺ فقال له: إنّ شرائع الإسلام قد كثرت فأخبرنا بباب نتمسك به جامع، فقال له النبي ﷺ: «لا يزال لسانك رطباً بذكر الله»(١).



ومن خير الذكر قراءة القرآن الكريم، كتاب الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قال ﷺ: «اقرؤوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه»(٢).

وقال ﷺ أيضاً: «من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول (الـــم) حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف، فتلك ثلاثون»(٣)

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٨٨)، والترمذي (٣٣٧٥) وابن ماجه(ح٣٧٩٣) عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (ح ٨٠٤).

(٣) أخرجه الترمذي (ح ٢٩١٠)، وانظر السلسلة الصحيحة،(ح ٦٦٠).

والمنهج في قراءته حسب المستطاع، كما قال تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾[المزّمل:٢٠].

وقال ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «اقرأ القرآن في كل شهر، اقرأه في خمس وعشرين، اقرأه في خمس عشرة، اقرأه في عشر، اقرأه في سبع، لا يفقهه من يقرؤه في أقل من ثلاث»[1].

وفي سنن الترمذي، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ أنه قال له: «اقرأ القرآن في أربعين»[2]

ومن المهمّ أن يكون لك ورد يومي من القرآن فلا يمرّ عليك يوم لا تنظر في المصحف وتقرأ منه ما تيسّر.

---

(١) خرجه أحمد (٢/ ١٦٤و١٦٥و١٨٩و١٩٥) وأبو داود(ح١٣٩٠و١٣٩٤) وابن ماجة (ح١٣٤٧) والترمذي (ح٢٩٤٩) وأصله عند البخاري ومسلم،وانظر السلسة الصحيحة(ح١٥١٣).

(٢) أخرجه الترمذي(ح ٢٩٤٦) وأبو داود (ح ١٣٩٥) ، بلفظ آخر، وانظر السلسة الصحيحة، (ح ١٥١٢).

ومن خير أصناف الذكر أيضاً: الاستغفار، فقد كان النبي ﷺ يكثر منه، ويقول: «إنّي لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»[١].

وهو سبب لتفريج الكربات وتنزل الرحمات، كما قال نوح لقومه:

﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾



والنبي ﷺ يبين أهمية الذكر ويسر أمره بقوله: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»[٢].

(١) أخرجه البخاري (ح ٦٣٠٧).

(٢) أخرجه البخاري (ح ٦٤٠٦)، ومسلم (ح ٢٦٩٤).

وأنواع الذكر كثيرة، والأذكار النبوية هي السياج المنيع، والحصن الحصين الذي يقي صاحبه مزالق الشيطان ووساوس إبليس اللعين، فلذلك شرعها الله للعبد في كل أحيانه أحواله وتقلباته، فمن أخذ بها وتمسك فقد فاز فوزاً عظيماً.

نماذج

وفي ميدان العبادة عرف كثيرون [١] فمنهم:

الربيع بن خثيم:

الإمام، القدوة، العابد، أبو يزيد الثوري الكوفي، كما قال عنه الذهبي.

كان ابن مسعود رضي الله عنه إذا رآه يقول: «وبشر المُخْبتين»، يا أبا يزيد، لو رآك رسول الله ﷺ لأحبك.

وقال أحد جلسائه: جالست الربيع عشر سنين، فما سمعته يسأل عن شيء من أمر الدنيا إلا مرتين، قال مرة: والدتك حية؟ وقال مرة: كم لكم مسجداً؟

---

(١) الصحابة كلهم كانوا أهل عبادة، وسأذكر نماذج من بعدهم، حتى لا يتعلل أحد بالصحبة أو النبوة، وما أذكره عن هؤلاء العباد هو من تراجمهم في كتب التراجم وهي متيسّرة.

وقال آخر: بتُّ عند الربيع ذات ليلة فقام يصلي، فمر بهذه الآية:

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[الجاثية:٢١]فمكث ليلته حتى أصبح ما جاوز هذه الآية.



وكان قد أصابه الفالج فيخرج إلى الصلاة يُهادى بين رجلين، فقيل له: قد رُخّص لك، فيقول: إنه كما تقولون،غير أني أسمع (حي على الفلاح) فمن سمع منكم ينادى (حي على الفلاح) فليجبه، ولو زحفاً، ولو حبواً.

وقيل عنه: كان الربيع إذا سجد كأنه ثوب مطروح فتجيء العصافير فتقع عليه.

كما روي أن أمه كانت تقول له: يا ربيع ألا تنام؟ فيقول: يا أمه، من جنّ عليه الليل وهو يخاف البيات[١] حق له أن لا ينام.

---

(١) أي هجوم العدوّ بالليل.



أبو مسلم الخولاني:

عبد الله بن ثوب، سيد التابعين، وزاهد العصر، كما قال الذهبي رحمه الله.

قال أبو نعيم: المتخلي عن الهموم والكرب.

وقال رحمه الله عن نفسه:«لو قيل لي: إن جهنم تسعر غداً ما استطعت أن أزيد في عملي».

وأبو مسلم هذا هو الذي رُمي في النار فلم تضره بإذن الله، فعن شرحبيل الخولاني قال:بينا الأسود العنسي باليمن، فأرسل إلى أبي مسلم فقال له: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، قال فتشهد أني رسول الله؟ قال: ما أسمع، قال: فأمر بنار عظيمة فأُجّجت وطرح فيها أبو مسلم فلم تضرّه، فأخرجه الأسود من اليمن، فقدم المدينة، وقابله عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقبّل بين عينيه، وقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني في أمة محمد ﷺ من فعل به كما فعل بإبراهيم عليه السلام.

مطّرف بن عبد الله بن الشّخّير:

قال أبو نعيم: المتعبد الشّخّير، كان لنفسه مذلاً، ولذكر الله مجلاً.

قال مطرف رحمه الله مخبراً عن نفسه: «لقد كان خوف النار يحول بيني وبين أن أسأل الله الجنة».

وقال رحمه الله: «ما يسرني أني كذبت كذبة وأن لي الدنيا وما فيها».

وقال سليمان بن حرب: «كان مطرف مجاب الدعوة، وقال لرجل: إن كنت كاذباً فأرنا به، فمات الرجل مكانه».

وهؤلاء السادة الأخيار وغيرهم من العباد الذين عرفهم التاريخ الإسلامي لابد أنهم وجودا في العبادة لذتها التي لا يعرفها غيرهم، فإن العبادة في أصلها هي الحبّ في غاية طاقاته، وأرفع مراتبه، وإذا بلغ الحب من المحب غايته أداه إلى التأله، أي التعبد.

وليس معنى هذا أن باقي الأبواب التي تمر بنا ليست عبادات، بل كل ما يتقرب به العبد إلى الله فهو عبادة، أي أنه يفعل ما يفعل عبادة، أي ذلاً ومحبة وخضوعاً له.

وإنما لأن هذه الأعمال التي اختصت باسم العبادة هي أفعال يحبها الله، ولا يفعلها إلا عابد محب لربه، فالإنفاق مثلاً قد يفعله الكريم من جود نفسه، والمقاتل قد يقاتل حمية وشجاعة.

أما الصلاة

فهي صلة العبد بربه لا يفعلها إلا محب لله تعالى يريد بقاء صلته بربه، تجده ولهاً مترقباً أن يقف بين يدي من يحبه ذلاً وخضوعاً، وهل ألذ من الارتماء بين يدي من تحب قد أحرقتك سبحات المحبة، وتخللت أنوارها أغشية قلبك، فتصلّي له وكأنما تنظر إليه، وتسأله الجنة كأنك تنظر إليها، وتستعيذ من النار وكأنما تصطلي بنارها.



وكذلك الصوم، هو قمة المحبة، إن الله تعالى لم يضع في العبد أقوى من محبة الذّكر للأنثى والأنثى للذّكر، ومحبة الطعام والشراب، فهي أقوى الغرائز وأشدها تحكماً في تصرفات العبد، فإذا ترك ملاذّه تلك لله تعالى دلّ على إخلاص تلك المحبة، وإفراده ربه، وكأنما يقول: يا رب، أنا إن أحببت غيرك فبحبك أحبها ولك أريدها، أحب من أجلك، وأدع لأجلك، فأنت في قلبي الأول فلا شيء قبلك، والآخر فلا شيء بعدك، والظاهر فلا شيء فوقك، والباطن فلا شيء دونك، وكل لذة هي لك، فإن طعمت فإنما حباً فيما أحللته لي، وإن نكحت فإنما قربة أتقرب بها إليك، فإن أعطيتني شكرت، وإن منعتني صبرت، فإنما نحن بك وإليك.

ثم تأتي قمة العبادة إذا أراد الحبيب أن لا يفارق محبوبه، فيستديم ذكره، والمحب الوله يذكّره كل شيء بمحبوبه، حتى إنه لتراه يضطرب لسماع اسم كاسمه، كما قال المجنون:

وداع دعا نحن بالخيف من منى | فهيج أطراب الفؤاد ولا يدري
دعا باسم ليلى غيرها فكأنما | أطار بليلى طائراً كان في صدري

وهذا في يقوله في المخلوق النّاقص، فكيف بمحبوب هو فوق كل محبوب، ومعبود هو فوق كل معبود، فإذا قام العبد ذكرِه، وإذا نام ذكرِه، فلا يفتر لسانه من ذِكْر من يحبه أشد الحب وأعظمه حتى لا يزال لسانه رطباً بذكره، وعقله مشغول بمحابه وإرضائه..

هذا هو العبد الذي حقق عبوديته، فأي لذة وأي نعيم يعيش فيه العباد؟!

وآية ما قلته أنك تجد من سيما هؤلاء العباد أن الواحد منهم لا يكاد يأنس بإنس أبداً مهما كان قربه منه، وتجد الواحد منهم يميل إلى الانفراد بنفسه؛ إذ يجد لذة المناجاة، ويعكر عليه صفوها وجودُ الغير بحضرته، وإذا ما خالط الناس سها بفكره وشرد بذهنه، ولا يزال متأففاً حتى ينعزل.

وهذا المعنى هو الذي أشار إليه الصحابي الجليل عبد الله بن عمر رضي الله عنه، حينما قال أحدهم: ألا تغزو؟ فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت**»[١].

ولزم الفضيل بن عياض العابد المشهور الحرمين حتى سمي عابد الحرمين، فلامه ابن المبارك على ترك الجهاد بقصيدته المشهورة:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت أنك في العبادة تلعبُ

فبكى الفضيل وقال: صدق أبو عبد الرحمن ونصح.

نعم، لقد صدق ابن المبارك، لكن الفضيل وجد في مجاورة الحرم والانقطاع إلى العبادة ما أنساه وشغله عن كل شيء.

ونحن ما بغض إلينا العبادة وأثقلها في قلوبنا إلا ما ملأناها به من الشواغل والمحابّ والملاذ التي صارت شغلاً لنا، فصار الواحد منا يقف بين يدي ربه

---

(١) سبق.



مشغول البال، منصرف الفكر، فكيف بالله عليك نعرف ما كان فيه القوم من النعيم؟!

وكيف نستلذ بعباداتنا كما كانوا يغرقون في لذتها هم؟!

وكيف نعايش ما كانوا يعايشون من الأنس بالله والوحشة من الخلق؟!

تلك درجات لا يبلغها السالك إلا إذا عرف الأسباب التي تعلقوا بها هم، والسبل التي سلكوها:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها　　إن السفينة لا تمشي على اليَبَس





﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

[التوبة:٣٤]





المال من أعظم الطرق الموصلة إلى رضا الله تعالى، كيف لا و هو فتنة هذه الأمة، كما قال ﷺ: «لكل أمة فتنة، وإن فتنة أمتي المال»[(١)].

ولا شك أن الإنفاق في سبيل الله دليل تباعد صاحبه عن الدنيا، و عظم محبة الله في نفسه، فهو يهلك أعز الأشياء على النفس في سبيل ربه تعالى:

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٧-٢١].

وإن السبل التي ترضى بها ربك بمالك و تنال ما عنده من العز و الكرامة في الدارين كثيرة لا تحصي، وأذكر لك على سبيل المثال:



ركن الدين الأعظم بعد الشهادتين والصلاة، ومن أهميتها قرنها الله بالصلاة في غالب المواضع من القرآن، فلا تكاد الصلاة تُذكر إلاّ وأُتبعت الزّكاة.

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٦٠)، و الترمذي (ح ٢٣٣٦) وقال: «حسن صحيح».

وقد كان النّبيّ ﷺ يبايع النّاس عليها ، فعن جرير بن عبد الله، قال: «بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنُّصح لكل مسلم»(١).

ومنع الزّكاة مبيح لقتال الإنسان وقتله إن قاتل على منعها، قال ﷺ : «أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله»(٢).



وعن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «ما من صاحب كنز، لا يؤدي حقه، إلا جعله الله يوم القيامة يحمى عليها في نار جهنم، فتكوى بها جبهته وجنبه وظهره، حتى يقضي الله تعالى بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة،

(١) أخرجه البخاري (ح٥٧) ومسلم (ح٥٦).

(٢) أخرجه البخاري (ح١٣٩٩) ومسلم (ح٢٠).



وإما إلى النار، وما من صاحب غنم لا يؤدي حقها، إلا جاءت يوم القيامة أوفر ما كانت، فيبطح لها بقاع قرقر، فتنطحه بقرونها، وتطؤه بأظلافها، ليس فيها عقصاء، ولا جلحاء، كلما مضت أخراها، ردت عليه أولاها، حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة، وإما إلى النار، وما من صاحب إبل لا يؤدي حقها، إلا جاءت يوم القيامة أوفر ما كانت، فيبطح لها بقاع قرقر، فتطؤه بأخفافها، كلما مضت عليه أخراها، ردت عليه أولاها، حتى يحكم الله تعالى بين عباده، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار»[١].

(١) أخرجه مسلم (ح ١٦٥٩).



الإنفاق على الجهاد:

و هو من وجوه صرف الزكاة الواجبة، قال تعالى:

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[التوبة:٤١].

و قال عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[الصف:١١].

وقال ﷺ :«من أنفق زوجين في سبيل الله دعي من أبواب الجنة: يا عبد الله، هذا خير»[١].

أي أن كل خازن من خزنة أبواب الجنة يدعه ليدخل منه، كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه مطولاً، و فيه:«فكل من أنفق زوجاً من المال مما يملك في

(١) أخرجه البخاري (ح ١٨٩٧)، و مسلم(ح١٠٢٧).



سبيل الله فكل خزنة الجنة يدعوه: يا عبد الله، يا مسلم، هذا خير»[١].

و جاء تفسير الزوجين في حديث أبي ذر حيث سئل عن تفسيره فقال:«إن كان رجالاً فرجلان، و إن كانت خيلاً ففرسان، و إن كانت إبلاً فبعيران حتى عدّ أصناف المال كله»[٢].

و في صحيح مسلم و غيره، عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً:«أفضل دينارٍ دينارٌ ينفقه الرجل على عياله، ودينار ينفقه الرجل على دابته في سبيل الله، و دينار ينفقه الرجل على أصحابه في سبيل الله»[٣].

و عن خزيم بن فاتك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:«من أنفق نفقة في سبيل الله كُتب له سبعمائة ضعف»[٤].

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه،(ح ٤٦٤٢).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٥١)، و ابن حبان، (ح ٤٦٤٥)، و إسناده صحيح.

(٣) أخرجه مسلم (ح ٩٩٤).

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٣٤٥)، و الترمذي (ح ١٦٢٥) و الحاكم (٢/ ٨٧)، و صحّحه، ووافقه الذهبي.



و عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه أن رجلاً تصدق بناقة مخطومة في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة»[١].

قضاء دين المعسرين و الغارمين

فإن في ذلك فكاكاً لرقابهم، و إبراء لذممهم، فابحث عنهم تجدهم، إما في غياهب السجن، وإمّا قابعين في بيوتهم لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، و تذكر أن: «من فرّج عن مسلم كربة فرّج الله بها عنه كربة من كرب يوم القيامة»[٢].

و مثله إنظار المعسر، و التيسير على من تعامل معك بمعاملات مالية، فإن ذلك مدعاة لرضا الرب سبحانه و تعالى كما جاء عن حذيفة بن اليمان مرفوعاً: «تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم فقالوا: ما عملت من الخير شيئاً؟ قال: لا، قالو: تذكّر، قال: كنت أداين الناس فآمر فتياني أن ينظروا المعسر، و أن يتجوزوا

(١) أخرجه مسلم (ح ١٨٩٢)، و الخطام: هو الحبل الذي يقاد به البعير.

(٢) أخرجه البخاري(ح ٢٤٤٢) مسلم (ح ٢٥٨٠).

عن الموسر، قال: قال الله عز وجل: تجوزوا عنه»[١].

وأصرح منه حديث أبى مسعود رضي الله عنه قال:قال رسول الله ﷺ:«حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيء، إلا أنه كان يخالط الناس.. فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر، قال: قال الله عز و جل: نحن أحق بذلك منه، تجاوزوا عنه»[٢].

الإنفاق على الفقراء و المساكين

وأقصد بهذا أن تلتزم بنفقات أسرة أو أكثر حسبما يقدر الله لك، من المأكل و المشرب و الملبس و العلم و غير ذلك، و هذا أفضل من توزيع الصدقات بلا تنظيم كما يفعله كثير من ذوى اليسر في البلاد.

و **الطريقة الأفضل**: أن ينظر إلى حال هذا الفقير و سبب فقره، فإن كان بسبب عدم وجود العمل فحاول إيجاده له، و لو بإعطائه بعض المال يتجر به فيكفى نفسه و أهله و يستعف من السؤال مرة أخرى.

(١) أخرجه البخاري(٢٣٩١) ومسلم(ح ١٥٦٠).

(٢) أخرجه مسلم (ح ١٥٦١).



و إن كانت بسبب دين قضي دينه، و إن كان بسبب عدم القدرة على العمل أو أن تكون أسرة بلا عائل فحينئذ ينفق عليها، و قد صح عنه ﷺ أنه قال: «الساعي على الأرملة و المسكين كالمجاهد في سبيل الله أو كالقائم لا يفتر و كالصائم لا يفطر»[١].

الإنفاق على الدعوة إلى اللّه سبحانه وتعالى



و ذلك يتم من خلال عدة قنوات:

فمنها التكفل بنفقات دعاة متفرغين للدعوة إلى اللّه.

و منها طبع الكتب الشرعية و الدعوية التي يستعين بها أهل الدعوة في إيصالها إلى من يحتاجها.

و منها نسخ الشريط الإسلامي، و هذا من أعظم وسائل نشر الدعوة، ومن ذلك بناء المساجد و المراكز الإسلامية، و من ذلك إصدار الجرائد و المجلات التي تُعنى بأمر الدعوة.

(١) أخرجه البخاري (ح ٥٣٥٣)،و مسلم (ح ٢٩٨٢).



ومن أهمّها في عصرنا دعم القنوات الفضائية المحافظة ومواقع الإنترنت التي تنشر العلم والسنة وتذب عن شريعة الله وتقدم المضامين الإعلامية في قوالب متوافقة مع الشريعة.



و أنت في ذلك كله -إضافة إلى فضل الإنفاق- داخل في قوله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي منصورين لا يضرهم خذلان من خذلهم حتى تقوم الساعة**»، و في لفظ: «**لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين**»[1].

قال النووي رحمه الله: «يجوز أن تكون الطائفة جماعة متعددة من أنواع المؤمنين، ما بين شجاع و بصير بالحرب، وفقيه، و محدث، و مفسر، و قائم بالأمر

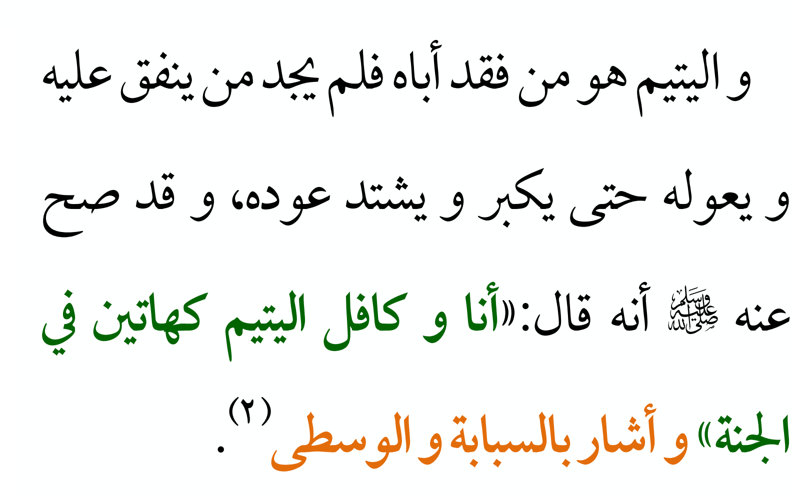
---

(١) روي عن عدد من الصحابة، وأخرجه مسلم في الإمارة، باب قوله ﷺ «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين» ، عن ثوبان ، (ح ١٩٢٠)، و البخاري في الاعتصام، باب قول النبي ﷺ «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين» ، عن المغيرة بن شعبة ،(ح ٣٤٦١) ، و غيرهما بألفاظ متقاربة.



بالمعروف و النهي عن المنكر، و زاهد و عابد»[١]، و المنفق على الدعوة لا يقل عن هؤلاء شأناً.

كفالة الأيتام



و اليتيم هو من فقد أباه فلم يجد من ينفق عليه و يعوله حتى يكبر و يشتد عوده، و قد صح عنه ﷺ أنه قال:«أنا و كافل اليتيم كهاتين في الجنة» و أشار بالسبابة و الوسطى[٢].



وكفالة اليتيم تكون بضمّه للأسرة ورعايته ماليا وتربويا ، أمّا دفع المال إلى من يعوله وينفق عليه فهو داخل في الصّدقة خلافا لما يتوهّمه البعض.

(١) شرح صحيح مسلم (٣/ ٦٦ -٦٧).

(٢) أخرجه البخاري (ح ٥٣٠٤)،و مسلم (ح ٢٩٨٣).



تزويج الأيامى

و هو من أعظم أوجه البر، لما في ذلك من وقاية المجتمع من انحرافات خلقية كثيرة، و هو داخل في التعاون على البر و التقوى، و قد قال تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾[المائدة:٢].

وإذا كانت إشاعة الفاحشة من أعظم الذّنوب الّتي توعّد الله فاعلها باللعنة والعذاب ، فإنّ إشاعة العفاف من أعظم ما يُؤجر عليه العبد عند الله تعالى.

توظيف المال لضرب الإنتاج الكافر:

لإضعاف اقتصاد العدو من جهة، و من جهة أخرى الاستثمار في البلاد المسلمة، و دعم منتوجاتها، بشرائها أو دعمها و الاستصناع فيها، بحيث توفر الأموال الإسلامية للمسلمين كل المنتوجات بمواصفات إسلامية على أقل تقدير.

و في هذا رفع للحرج عن الأمة، و سد طريق الدعوة للتنصير و الانحلال عن طريق منتوجات الكفار، هذا و الله من أعظم الجهاد، و فيه أجر عظيم من الله تعالى إذا احتسب فيه المؤمن.

و كُلّي أمل في كلّ صاحب مال يكفر ألف مرة في هدف بعيد المدى يحقق ما ذكرته من المقاصد أو بعضها، لعل الله يبارك له في ماله، و يصفوا له أجر الدنيا و الآخرة، و ليس ذلك بعسير على من توكل على الله واجتهد في تحصيل المطلوب.

نماذج

ومن أشهر المنفقين في عصور التاريخ الإسلامي: أمير المؤمنين، الصحابي الجليل، ذو النورين، عثمان ابن عفان رضي الله عنه، أنفق من ماله بل أنفق ماله حتى قال النبي ﷺ :



«ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم»[١].



فقد جهز جيش العسرة بكامله، واشترى للناس بئر رومة ووقفها على المسلمين، و في كل ذلك يعدُه النبي ﷺ الجنة.

---

(١) أخرجه أحمد(٥/ ٦٣)، و الترمذي (ح ٣٧٠١) وحسنه.

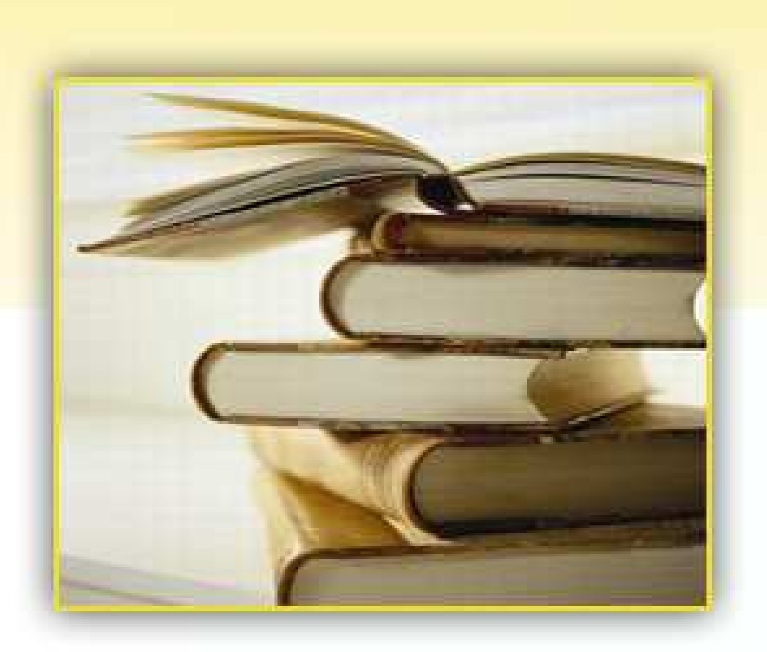


وكان عبد الله بن جعفر بن أبي طالب من أشهر الكرام الباذلين: أعطاه يزيد بن معاوية عطاءً قدّره ثلاثة آلاف ألف درهم، فقال له رجل: **تعطي هذا العطاء رجلاً واحداً؟** فقال: « **و الله ما أعطيته إلاّ لجميع أهل المدينة** »، و أنفذ يزيد من يرقبه، فما وصل المدينة حتى فرّق ذلك المال كله، و لم يمض شهر حتى احتاج إلى الدّين.

ولا دليل أدل على أهمية الإنفاق و محبة الله له من جعله **أداء الزكاة ثالث أركان الإسلام، ولا تكاد تجد ذكر الصلاة إلا مقرونة بالزكاة، لماذا؟**

لأن الإنفاق من المال دليل تفوق محبة الله في قلب عبده على محبة المال، و لأن الغالبية العظمى من الأمراض الاجتماعية و الخلقية تتسبب عن تدنى مستوى المعيشة، فتكون أنت و أمثالك من المنفقين أوتاداً يثبت الله بها المجتمع من السير نحو الهلاك، و دعائم لعلها يُستند عليها لتصحيح مسار الجيل، و دواء يتطبب به مرضى كثيرون، فأي أجر أصبت، وأي مكانة تبوأت أيها المنفق!





﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزُّمَر: ٩]



طلب العلم من أفضل القربات، ومن أرفع المقامات، كيف وقد جاء فيه من الفضائل ما لا يحصى، وهل خير ممن ورّثه المصطفى ﷺ؟

قال أبو ذر رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «إنّ العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولادرهماً، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»[1].

ومنْ أفضل ممن قرن الله شهادتهم بشهادته:

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[آل عمران:١٨]

ومنْ أفضل ممن حصر الله مخافته فيهم:

﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[فاطر:٢٨].

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٩٦)، وأبو داود (ح ٣٦٤١)، والترمذي(ح ٢٦٨٢) وابن ماجه (ح ٢٢٣) وغيرهم بألفاظ متقاربة، وله شواهد، ولذلك حسنه الشيخ الألباني في صحيح الترغيب(٧٠).

والعلماء هم القائمون بالحجة على العباد في كل عصر، كما أن الأنبياء هم الشهود على أممهم، ويكفي أنهم أمناء الله على دينه، والقائمون على حفظه وإبلاغه للعالمين.

وقال النّبيّ ﷺ : « لأن أقعد مع قومٍ يذكرون الله ـ تعالى ـ من صلاة الغداة حتى تطلع الشمس ؛ أحبّ إليّ من أن أعتق أربعةً من ولد إسماعيل ، ولأن أقعد مع قومٍ يذكرون الله من صلاة العصر إلى أن تغرب الشمس أحبّ إليّ من أن أعتق أربعة »[١].

قال يزيد الرّقاشي: « كان أنس بن مالك إذا حدّث بهذا الحديث أقبل عليّ وقال : والله ما هو بالّذي تصنع أنت وأصحابك ، ولكنّهم قوم يتعلّمون القرآن والفقه ».





(١) أخرجه أبو داود (ح ٣٦٦٧) ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع (ح ٥٠٣٦) وفي صحيح الترغيب (ح ٤٦٢).





وقال عليه الصلاة والسّلام : « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب »[١].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال :

«لأن أعلم باباً من العلم أمر ونهي أحبّ إليّ من سبعين غزوة في سبيل الله».

قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ : «المتّقون سادة ، والفقهاء قادة ، ومجالستهم زيادة».

وقال سفيان بن عيينة: «أعظم النّاس منـزلةً من كان بين الله وبين خلقه : الأنبياء والعلماء».

وعن الحسن البصري قال : «لأن أتعلّم باباً من العلم فأعلّمه مسلماً أحبّ إليّ من أن تكون لي الدّنيا كلّها أجعلها في سبيل الله» .

---

(١) أخرجه الترمذي (ح٢٦٨٢) وأبو داود (ح٣٦٤١) وابن (ح٢٢٢) وأحمد(ح ٢١٢٠٨) وغيرهم عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ وحسّنه الألباني في صحيح الجامع (ح٦٢٩٧).

وقال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ : «لأن أفقه ساعة أحبّ إليّ من أن أحيي ليلة أصلّيها حتّى أصبح».

وقال الزّهري : «ما عُبد الله بمثل الفقه».

وقال الشّافعي ـ رحمه الله ـ تعالى ـ : « ما تُقُرّب إلى الله ـ عزّوجل ـ بعد أداء الفرائض بأفضل من طلب العلم ».

وقال عليّ بن أبي طالب – رضي الله عنه –: « كفى بالعلم شرفاً أن يدّعيه من لا يحسنه، وكفى بالجهل ذمّاً أن يتبرّأ منه من هو فيه ».

وقال أبو مسلم الخولاني ـ رحمه الله ـ: « مثل العلماء في الأرض مثل النّجوم في السّماء ، إذا بدت للنّاس اهتدوا بها وإذا خفيت عليهم تحيّروا ».



وقال الشّافعي :«من أراد الدّنيا فعليه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم».



وفضائل العلم لا تخفى، والذي يهمنا هنا أن نذكر أن عهد الشمول قد ولّى [١]، تلك حقيقة يجب أن يقنع بها من أفنى عمره يرجو إحاطة العلوم، وأن يحويها بين جنبيه، وهذا ليس بلازم، بل لكل عصر ظروفه ونتاجه الذي يفرض نفسه.

فالواجب أن يحدد كل طالب علم فنّاً يحبه ويميل إليه، مع القدرة على الإبداع فيه، هذا هو الأولى، فإن الأعمار قد قصرت عن الإحاطه بفروع العلوم، والهمم تدنّت فلا يستطيع الواحد منا ذلك البتة، فيكفي من كل علم ما يقيم به طالب العلم صُلْبه، ويختار من التخصص ما يُتْخِمُ به نفسه ويتضلع منه حتى خرج

(١) المقصود هنا أن يرغب الطالب أن يكون مبرزاً ومكتمل الأهلية في كل تخصص، وليس المقصود أن يكون محيطاً بأصول كل علم والمهم منه، فهذا لازم لطالب العلم وتركه نقص، فلابد للفقيه من علم النحو واللغة ما يستقيم به فقهه،ولابد للنحوي من الفقه ما يقيم به عبادته، ولا بد للمفسرين من الحديث ما يصحح له روايته، ولا بد للمحدث من السير وعلم الجرح والتعديل ما يقوم به مروياته، ولا بد للجميع من وعلم التوحيد والعقائد والفِرَق ما يعصمهم من الزيغ وسلوك أهل البدع، وقد يبرز العالم في فن أو اثنين لكن من الصعوبة أن يكون حجة في الفقه والتوحيد والفرق والنحو والبلاغة والتفسير والحديث، بحيث يصبح في درجة المجتهد في كل هذه الفنون.أقول: والواقع خير شاهد، فأين هو العالم الذي نستطيع أن نعتبره حجة في كل فن كما كان شيخ الإسلام ابن تيمية مثلاً؟ بل إننا نعرف أن بعض من يشار إليهم بالعلم والتبحر فيه، بل ويتصدر للفتوى، يرد عليه صغار الطلبة في بديهيات النحو والحديث مثلاً.

الريُّ من أظفاره، حتى يغدو مرابطاً على ثغره من ثغور الإسلام فيصبح حجة فيها، إما القرآن وعلومه، وإما الحديث وأصوله، وإما الفقه،وإما العقيدة والتوحيد، وهكذا.

أما أن يريد أن يصبح حجة الله في كل فن، **فذلك كالمُنْبَتّ لا أرضا قطعً ولا ظهراً أبقى، إلاّ أن يشاء الله**.

وهذا ليس بدعاً من القول، فقد كان أصحاب النبي ﷺ أصحاب تخصص، فكذلك كن أنت، فمجالات طلب الآخرة في طلب العلم الكثيرة:

فمنها: حفظ القرآن الكريم وتحفظه وتفسيره

وأهل القرآن هم أهل الله وخاصته، كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ، وقد قال ﷺ: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**»[1].

وقال ﷺ: «**تعلموا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شافعاً لأصحابه**»[2].

(١) أخرجه البخاري (ح ٥٠٢٧).

(٢) أخرجه مسلم (ح ٨٠٤).



وحثّ على مدارسته وحفظه فقال: «تعاهدوا كتاب الله، فوالذي نفسي بيده لهو أشد تفلتاً من الإبل في عقلها»[١].

كما حث على ترتيله وتحسين الصوت به: «ليس منّا من لم يتغن بالقرآن»[٢].

وإن من أفضل العلم تعلم كتاب الله ..

فإنّ شرف العلم من شرف المعلوم

والمعلوم هنا هو كلام الله سبحانه وتعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حميد مجيد.

ومن دعاء النبي ﷺ لابن عباس: «اللهم علّمه الكتاب»[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (ح ٥٠٣٣) ومسلم (ح ٧٩١).

(٢) أخرجه البخاري (ح ٧٥٢٧).

(٣) أخرجه البخاري (ح ٧٥).



فإن كنت ممن منّ الله عليه بقوة الحفظ فعليك بكتاب الله حفظاً وتلاوة، ولا يفوتنك أخذ القراءات السبعية والعشرية إن استطعت، فإن ذلك من موعود الله بحفظه القرآن، وأصحاب هذا الشأن في زماننا قلة.



وأحكام التجويد فاعتنٍ بها، واحرص على حفظ متون هذا العلم، ثم إذا تمكنت منه فعلّمْه للناس، اجلس لطلاب العلم ليحفظوا على يديك كتاب الله، كما فُعل بك فافعل بهم، وارج في ذلك كله الله، وهنيئاً لمن كانت أوقاته وهمه بين آيات القرآن حفظاً، ومدارسة، وتلاوة.

ولا تكن كالأميين الذين لا يفقهون ما يقرأون، بل عليك بالتفسير، فخذ منه بحظ وافر، فقد ذم الله اليهود وشبههم بالحمار الذي يحمل على ظهره كتب العلم وهو لا يعرف ما تحويه، فلا تكن مثلهم فيصيبك ما أصابهم.

وكن كرسُول الله ﷺ، الذي قالت عنه عائشة رضي الله عنها: «كان خُلُقُه القرآن»[١].

فليكن خلقك القرآن، ولا تُزْر بنفسك فتغشى مجالس تضع من قدرك، ووقّر كلام الله الذي يتردد بين جنبيك، ولا يخالفنّ قيلك فعالك، فكم من قارئ للقرآن والقرآن يلعنه!

وأرفق بمن تعلمهم الكتاب، ولا تكن سبباً في نفرتهم عن كتاب الله، فتكون من الصادّين عن ذكر الله، واصبر عليهم، وصابر في أن يتقنوا القرآن على يديك، فوالله لذلك خير لك مما حملته الأرض.

وعليك بالتواضع، فإن أقبح ما اتصف به ذو علم: الكبر.

ولا تطفئ النور الذي حباك الله بمعصية تنسيك ما حفظت، وإن فعلت فلا تؤخر التوبة، فكل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون.

(١) أخرجه مسلم (ح ٧٤٦).



نماذج

وقد كان القرآن محط اهتمام من السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم، وممن جرد نفسه للقرآن:

أبو عبد الرحمن السلمي

عبد الله بن حبيب بن ربيعة الكوفي، الإمام، العلم، مقرئ الكوفة، قرأ القرآن، وجّوده، ومهر فيه، وعرض على عثمان، وعلي، وابن مسعود، رضي الله عنهم.

قال أبو إسحاق: «كان أبو عبد الرحمن السلمي يقرئ الناس في المسجد الأعظم أربعين سنة».



وروي عنه قوله: «أخذنا القرآن عن قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهن حتى يعملوا ما فيهن، فكنا نتعلم القرآن والعمل به».



وجاء مرة إلى منزله فوجد هدايا بعث بها عمرو بن حريث لأنه علّم ولده القرآن، فقال: «رُدّوها، إنّا لا نأخذ على كتاب الله أجراً»[١].

وقال إسماعيل بن أبي خالد: «كان أبو عبد الرحمن يعلمنا القرآن خمس آيات خمس آيات».

عاصم بن بهدلة بن أبي النجود

أبو بكر الأسدي، مولاهم الكوفي، الإمام الكبير، مقرئ العصر، قرأ القرآن على أبي عبد الرحمن السلمي، وزر بن حبيش، وغيرهم.

قال أبو إسحاق: «ما رأيت أحداً قط أفصح من عاصم، إذا تكلم كاد يدخله خيلاء».

وقال العجلي: «عاصم صاحب سنة وقراءة، وكان رأساً في القرآن».

---

(١) اختلف الأئمة في أخذ الأجر على تعليم القرآن بين مجيز بإطلاق، ومانع بإطلاق، ومفصل بين المحتاج من غيره، والأحوط إن كان العبد مستغنياً عن الأجرة أن لا يأخذ، وأما إن كان محتاجاً لها فلا بأس، وعلى هذا استقرت مذاهب الأئمة.

وقال سلمة بن عاصم:«كان عاصم ذا أدب، ونسك، وفصاحة، وصوت حسن».

وقال أبو بكر:«كان عاصم إذا صلّى ينتصب كأنه عود، وكان يكون يوم الجمعة في المسجد إلى العصر، وكان عابداً خيراً يصلي أبداً، ربما أتى حاجة فإذا رأى مسجداً قال: ملْ بنا فإن حاجتنا لا تفوت، ثم دخل فيصلّي».

توفي رحمه الله سنة سبع وعشرين ومئة.



ومن فروع العلم: علم الحديث

وناهيك به من علم، لا يُبتغَى به إلاّ وجه الكريم تعالى، وكان يُسَمّى بضاعة المفاليس، نعم فإنه من العلم الذي لا يبحث عنه إلاّ من أراد الله والدار الآخرة.

بحرٌ لا ساحل له، وجواد يستعصي على كل فارس إلاّ المبرزين، لكن أهل الحديث هم أصحاب السبق، لله درهم، وعليه شكرهم، فهم المعنيون عند كثير من أهل العلم بقول رسول الله ﷺ:

«لا تزال طائفة من أمتي منصورين لا يضرهم خذلان من خذلهم حتى تقوم الساعة»[(١)]

فالطائفة المنصورة، والعصابة القائمة بالحق حتى قيام الساعة هم أهل الحديث، أصحاب السنة، فهم أولى الناس بالحق، وهم أقرب الناس إليه، وهم أتبع الناس لرسول الله ﷺ، وهو مروي عن الإمام أحمد رضي الله عنه، فقد روى ابن حبان عن الإمام أحمد أنه مر على نفر من أصحاب الحديث وهم يعرضون كتاباُ لهم فقال:«ما أحسب هؤلاء إلا ممن قال رسول الله ﷺ:«لا تزال طائفة من أمتي منصورين لا يضرهم خذلان من خذلهم حتى تقوم الساعة»».

(١) أخرجه البخاري(ح٧١)، ومسلم (ح ١٠٣٧).

قال أحمد بن سنان القطان:«**ليس في الدنيا مبتدع إلا وهو يبغض أهل الحديث**».

وقال الفاروق عمر رضي الله عنه:«**سيأتي أناس يجادلونكم بشبهات القرآن، خذوهم بالسنة، فإن أصحاب السنة أعلم بكتاب الله**».

وكان الإمام الشافعي رحمه الله يقول:

«**لولا أهل المحابر لخطبت الزنادقة على المنابر**».

وهو من العلوم الّتي لا يؤتاها من لم يتفرغ لها،



قال بعض الأئمة : «**لا ينال هذا العلم إلاّ من عطّل دكّانه ، وخرّب بستانه ، وهجر إخوانه ، ومات أقرب الناس إليه فلم يشهد جنازته**».

ولا يُنال إلاّ بصبر شديد، ومن صبر الأئمّة ، ماذكره أبو حاتم الرّازي عن نفسه قال :« بقيت بالبصرة سنة أربع عشرة ثمانية أشهر ، فجعلت أبيع ثيابي حتّى نفدت ، فمضيت مع صديق لي أدور على الشّيوخ فانصرف رفيقي بالعشيّ ،



ورجعتُ فجعلت أشرب الماء من الجوع ، ثمّ أصبحت فغدا عليّ رفيقي فطفت معه على جوع شديد ، وانصرفت جائعاً ، فلمّا كان من الغد غدا عليّ ، فقلت : أنا ضعيف لا يمكنني ، قال : ما بك ؟ قلت : لا أكتمك : مضى يومان ما طعمت فيهما شيئاً ، فقال : قد بقي معي دينار ، فنصفه لك ، ونجعل النّصف الآخر في الكراء ، قال : فخرجنا من البصرة وأخذت منه نصف الدّينار ».

وقال الإمام النووي رحمه الله:«إن من أهم العلوم تحقيق معرفة الأحاديث النبويات، أعني معرفة متونها صحيحها وحسنها وضعيفها وبقية أنواعها المعروفات، ودليل ذلك أن شرعنا مبني على الكتاب العزيز والسنن المرويات،وعلى السنن مدار أكثر الأحكام الفقهيات، فإن أكثر الآيات الفروعيات مجملات وبيانها في السنن المحكمات، فثبت بما ذكرناه: أن الاشتغال بالحديث من أجلّ العلوم الراجحات،





وأفضل أنواع الخير وآكد القربات، وكيف لا يكون كذلك وهو مشتمل على بيان حال أفضل المخلوقات، عليه من الله الكريم أفضل الصلوات والسلام والبركات»

وعلم الحديث فرعان كبيران :

الأول: علم الحديث دراية ويسمى أيضاً أصول الحديث أو مصطلح الحديث.

والمراد به القواعد والضوابط التي يميز بها الحديث الصحيح من الضعيف، وأحوال المتون من حيث الشذوذ والنكارة، وأحوال السند كذلك، وأحوال الرواة الثقات منهم والضعفاء وأخبارهم.

الثاني: علم الحديث رواية.

وهو دراسة الأحاديث المنقولة عن رسول الله ﷺ، وتطبيق أصول الحديث فيها، ومن ثم معرفة معاني ألفاظها، وما يندرج فيها من الأحكام الشرعية والأدب والعقائد، ونحو ذلك.



وينبغي لطالب العلم أن لا يعجل بدراسة الحديث حتى يأخذ حظه من القرآن واللغة العربية والتوحيد، ثم يبدأ نفسه بحفظ ما يستطع من الأحاديث الثابتة عن رسول الله ﷺ، وفي مقدمة ذلك الأربعين النووية مع شرح ابن رجب، ثمّ العمدة والبلوغ ونحوهما، ثم الصحيحان، ثم الأربعة، ثم غيرها.

ولا يهلك طالب الحديث نفسه بشغله عن المتن بالسند، وبالنقد عن الاعتبار، فإن ثمرة الاشتغال بالحديث الاطلاع على سنن رسول الله ﷺوأيامه وأحواله وأخباره؛ لنعيشها، ولنطبقها، ونستن بسنته، ونحكّم شرعته، فإذا شغلنا بالسند عن المتن وبالنقد عن العمل فإنها خسارة وأي خسارة، لكن كل ذلك بحسبه، وقد جعل الله لكل شيء قدراً.

فعليك بالحديث إن كان بك ميل إليه، واتسع صدرك لطلبه والصبر والجلد في تحصيله، فإن بلغك الله بشيء منه فليهنك العلم.



نماذج

ومن أهل الحديث أكتفي بعلم واحد فقط:

الإمام البخاري:

محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، أبو عبد الله، أمير المؤمنين في الحديث، صاحب أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى.

قال عن نفسه:«أُلهمت حفظ الحديث وأنا في الكُتّاب، وأنا ابن عشر سنين أو أقل، فلما طعنت في ستة عشرة سنة كنت قد حفظت كتب ابن المبارك ووكيع».

وقال عن نفسه:«كتبت عن ألف وثمانين رجلاً ليس فيهم إلا صاحب حديث».

وقال عن كتابه الصحيح:«أخرجت هذا الكتاب من زهاء ستمائة ألف حديث،صنفته في ست عشرة سنة».

قال الفريابي:«كنت مع محمد بن إسماعيل بمنزله ذات ليلة، فأحصيت عليه أنه قام وأسرج يستذكر أشياء يعلقها في ليلة ثمان عشرة مرة».



وقال محمد بن سلام فيه:«كلّما دخل عليّ هذا الصبي تحيّرت وألبس علي أمر الحديث وغيره، ولا أزال خائفاً ما لم يخرج».

وقال الفلاس: «حديث لا يعرفه محمد بن إسماعيل ليس بحديث».

وقالوا: « لم ير محمد بن إسماعيل مثل نفسه».

وقال أحمد بن حنبل:«ما أخرجت خراسان مثل محمد بن إسماعيل».

وبعد، أترى هذا حصل للبخاري لولا فضل الله ثمّ اجتهاده وإقباله على الحديث، وتفرغه له، وبيعه الغالي والرخيص في سبيل تحصيله؟

وصدق ابن حبان رحمه الله حين قال في أهل الحديث:«ومن أحق بهذا التأويل من قوم فارقوا الأهل والأوطان، وقنعوا بالكسر والأطمار في طلب السنن والآثار، وطلب الحديث والأخبار، المتبعون لآثار السلف من الماضين، والسالكون نهج محجة الصالحين، ورد الكذب عن رسول رب العالمين».



ومنها أيضاً: أصول العقائد والتوحيد

وهو من أشرف العلوم وأجلها، إذ أن الفرق والبدع قد كثرت في الأمة، وأخذ المنافقون يلبسون على الناس دينهم، فيجب على طالب العلم أن يتحصن بتعلم التوحيد والعقيدة وأصول البدع والفرق المخالفة حتى لا يقع في البدعة، **وقد قال عمر بن الخطاب:**

«تنقض عُرَى الإسلام عروة عروة، إذ نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية».

وقال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[الأنعام:٥٥].

ومن تخصص في هذا الفن، واستطاع التعمق فيه، وصرف الساعات في إتقانه ومعرفة مداخله ومخارجه وألفاظه، وما دخله من علوم المتكلمين والفلاسفة، وحججهم وأباطيلهم؛ للذب عن حوزة الإسلام وعقائد السنة فهو من الرباط، وعلى ثغرة مكشوفة من ثغور الإسلام والمسلمين، وأجره على الله،وله في أئمة الإسلام قدوة وأسوة ومثالاً يحتذى.



وفي هذه الأيّام أصبح لدينا فتنة جديدة متمثلة في المذاهب الفكرية المعاصرة واتجاهات الأدب والنقد الحديث التي تحتاج إلى مزيد من التخصص والعمق ليتمكّن الدارس من تشريحها وسبر أغوارها وكشف زيفها.

نماذج

وأذكر لك هنا من عجزت النساء أن يلدن مثله: شيخ الإسلام والمسلمين، الإمام، الأوحد، فريد عصره، ونسيج وحده:

أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية.

هذا الرجل الذي نذر نفسه للذب عن دين الله، ومقارعة أعداء الله بشتى مللهم ومشاربهم، رد على اليهود والنصارى، وعلى الجهمية والرافضة والمعتزلة والفلاسفة والمرجئة والخوارج والصوفية، ولم يترك بدعة إلا فندها وبين عوار أهلها رحمه الله تعالى، ولم يأت بعده من فهم الإسلام وشرائعه وعقائده كما فهمها هذا الإمام السيد، مما شهد له به الأعداء قبل الأصدقاء.

قال عنه ابن سيد الناس: «كاد يستوعب الآثار والسنن حفظاً، إن تكلم في التفسير فهو حامل رايته، أو أفتى في الفقه فهو مدرك غايته، أو ذاكر الحديث فهو صاحب علمه وروايته، أو حاضر بالنحل والملل لم ير أوسع من نحلته في ذلك ولا أرفع من رايته، برز في كل فن على أبناء جنسه، ولم تر عين من رآه مثله، ولا رأت عينه مثل نفسه».

وقال ابن عبد الهادي: « كان رحمه الله سيفاً مسلولاً على المخالفين، وشجي في حلوق أهل الأهواء والمبتدعين، وإماماً قائماً بالحق ونصرة الدين ».

ومن فروع العلم علم الشريعة والفقه والأحكام الفرعية

وقد قال ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»[1].

ومن أراد دراسة الشريعة والفقه وأحكامه فعليه بالسُّلّم الذي رقاه من قبله حتى وصلوا إلى ما أرادوا، وأما القفز والتعجل فتلك آفة مهلكة، ومضيعة للوقت في غير طائل.

---

(١) أخرجه البخاري (ح ٧١)، ومسلم (ح ١٠٣٧).



فأول ما يبدأ فيه المتفقه الأعمال الواجبة عليه كالطهارة والصلاة ونحوها، فيتعلمها؛ لأن علمها واجب عليه، وما لا تم الواجب إلا به فهو واجب.

ثم بعد ذلك يأخذ الفقه على يد الفقهاء على أحد المذاهب الفقهية ، مع الحرص على التؤدة والأناة في التفقه والأخذ.

ولا ينفرد طالب العلم بنفسه، وعليه التزام المذهب في التعلم، مع الحرص على الدليل عند إرادة العمل ما لم يتبين له، ولا يلزمه شرعاً أن يبحث عن مخالفة المذاهب الأخرى، **فإن عرفها عرضاً وأخبر بها فعليه أن يتحرى السنة قدر الإمكان**، فإن كان فهمه لم يقو ولم يتمرس بعد على الترجيح فعليه التزام المذهب الذي يأخذ عنه العلم ، حتى تتسع مداركه ويقوى على النظر في كتب الخلاف العالي.



وما أدى بنا إلى الفوضى الفقهية في هذه الأيام إلا مخالفتنا لمذاهب العلماء في أخذ العلم

فترى الواحد منا يتكلم في البيع، وهو لم يتقن بعد أحكام الطهارة والصلاة.

ويطيل النظر في المغني والمجموع ونحوها ولم ينظر قط في العمدة أو الوجيز، كما يطلب الفقه من فتح الباري وشرح ابن رجب ولا يعير كتب الفقه أي اهتمام.

وهذه طريقة ربما تخرج مثقفين، وأما الفقهاء فليس هذا منبعهم، وما هكذا كان مخرجهم.

ومن أراد المنهج الأسمى الصحيح فليسأل عالماً من علماء وقته الفقهاء عن طريقته، وتدرجه في طلب العلم اليسير، ويتعلم منه منهجه.

فإن لمست من نفسك ميلاً إلى الفقه، ووجدت فيها أهلية لتعلمه فدونك الفقه، وتعرّض للعلماء، وخذ منهم كما أخذوا، فإن الأمة بحاجة إلى الفقيه الألمعي، والمفتي الأحوذي، الذي لا تنطلي عليه محدثات الأمور، ولا تلاعبات المتلاعبين



بالشرع، الذين يحلُّون ما حرّم الله، ويحرّمون ما أحلّه، بحجج من الشرع لا تدل على مقاصدهم، ولا تسعفهم في نيل مآربهم، لكن عَدَم الفقيه المتيقظ سوّل لهم أن يرتعوا في الحرمات، ويبطلوا الشرائع المهمات في عماية من المسلمين وجهل من ولاة الأمور؛ حتى انتشرت الشرور والبدع، وأُبطل كثير من الشرائع بفتوى من ينتسب إلى العلم والفقه والفتوى.

ولا يفوت التّنبيه إلى أنّ الفقه ليس متونا تُحفظ، وأقوال تُسرد،الفقه ملكة في أصله تُنمّى بطول النظر والتفقّه، قال الفرّاء : «لا أرحم أحداً رحمتي لرجلين : رجل يطلب العلم ولا يفهم ، ورجل يفهمه ولا يطلبه»، قال ابن حبّان: « لا ينفع العقل إلاّ بالاستعمال ولا ينفع الرأي إلاّ بالانتخال».

وكذلك الفقه لا ينفع بغير تفقّه واستعمال له.

فياحسرةً على من ضيّع أيّامه ولياليه في تعلّم أصول الفقه فإذا غاية ما أفاده علمه التّحايل على النّصوص لتوافق شيخه ومذهبه ، وجمّد عقله على ما ورثه من سلفه دون تفقّه وتمحيص وتدقيق ونظر .

نسأل الله أن يلهمنا الفقه الصّحيح ، والاتّباع الرّشيد.

وليس من الفقه حكاية الأقوال وحفظها متناقضة دون التّمييز بين صحيحها وضعيفها ، فإنّ فائدة الطّلب الوصول إلى العلم أو غلبة الظّن في المسائل العلميّة ، وذلك يلزم منه التّحقيق في المسائل والاجتهاد في معرفة الصّواب في المسائل الخلافيّة ، وأمّا حفظ الأقوال فيها دون تمييز فلا يعدو فاعل ذلك أن يكون كتاباً ، والكتب لا تُفتي ، ولا تفقّه وحدها.

نماذج

لم يعرف تاريخ الفقه الإسلامي فقيهاً كأبي حنيفة، الإمام :

النعمان بن ثابت:

هذا العلامة الذي اشتهر بالفطنة والفقه والمهارة فيه حتى بلغ من ذلك عجباً.

قال الذهبي:«**الإمام، فقيه الملة... عني بطلب الآثار، وأما الفقه والتدقيق في الرأي وغوامضه فإليه المنتهى**».

قيل لمالك: رأيت أبا حنيفة؟ قال: «**نعم، رأيت رجلاً لو كلّمك في هذه السارية أن يجعلها ذهباً لقام بحجته**».



وكان يُسمّى الوتد لكثرة صلاته، وكان طول الصمت، كثير العقل.

وقال يحيى بن سعيد القطان: «**ما سمعنا أحسن من رأي أبي حنيفة**».

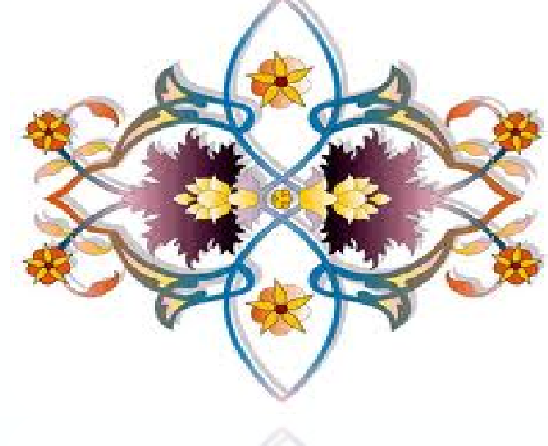
وقال حفص بن غياث: «**كلام أبي حنيفة في الفقه أدق من الشعر، لا يعيبه إلا الجاهل**».

وقال ابن المبارك: «**أبو حنيفة أفقه الناس**».

وقال الشافعي: «**الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة**».

وقد ضربه المنصور على أن يلي القضاء فأبى رحمه الله ورعاً.

ثم قال الذهبي:«**الإمامة في الفقه ودقائقه مسلمة إلى هذا الإمام، وهذا أمر لا شك فيه**».





ومن فروع العلم أيضاً: علم النحو والصرف وفقه اللغة

وهذه العلوم وإن كانت ليست شرعاً فإنها أدوات يضبط بها العلم الشرعي، واحتساب الأجر في تعلمها وتعليمها يؤجر عليه المسلم، وقد جعلها العلماء من شروط الاجتهاد، على أن التوسع فيها يقي المسلمين ما يدخله أهل البدع والزنادقة من جهة اللغة.

من ذلك أن الجهمية أوّلت الاستواء بالاستيلاء واستدلت ببيت شعر فيه:

قد استوى بِشْرٌ على العراق   من غير سيف أو دم مهراق

فسئل ابن الأعرابي، وهو من أكابر أئمة اللغة: هل يصح أن يكون استوى بمعنى استولى؟ قال: «لا تعرف العرب ذلك».

ومن ذلك نفي المعتزلة رؤية المؤمنين ربهم مستدلين بقوله تعالى لموسى: **(لن تراني)** فقالوا: إن لن تفيد التأبيد.

فرد عليهم أهل اللغة بأن (لن) لا تفيد التأبيد حيث قال ابن مالك في الكافية:

ومن رأى النفي بلن مؤبدا   فقوله اردد وخلافه اعضدا



نماذج

ومن الأئمة الذين برزوا في اللغة، **الخليل بن أحمد الفراهيدي** : الإمام، صاحب اللغة، ومنشئ علم العروض.

قال الذهبي:«كان رأساً في لسان العرب، ديّناً، ورِوعاً، قانعاً، متواضعاً، كبير الشأن، يقال: إنه دعا الله أن يرزقه علماً لا يسبق إليه ففتح له بالعروض».

وكان رحمه الله مفرط الذكاء، وهو معدود في الزهاد.

من أقواله: «إنّي لأغلق عليّ بابي فما يجاوزه همّي».

وقال رحمه الله:«لا يعرف الرجل خطأ معلمه حتى يجالس غيره».

ومنهم إمام النحو، حجة العرب، **أبو بشر عمرو بن عثمان الفارسي، المشهور بسيبويه**:

قال الذهبي:«أقبل على العربية، فبرع وساد أهل العصر، وألف فيها كتابه الكبير الذي لا يُدرك شأوه فيه».



سُمّي سيبويه لأن وجنتيه كانتا كالتفاحتين، بديع الحسن.

قال بعض أصحابه: «كنا نجلس مع سيبويه في المسجد، وكان شاباً جميلاً نظيفاً، قد تعلق من كل علم بسبب، وضرب بسهم في كل أدب، مع حداثة سنه».

وقيل: «كان فيه مع فرط ذكائه حبسة في عبارته وانطلاقة في قلمه».

ومنها العلوم الطبيعية كالطب والصيدلة والتاريخ والجغرافية واللغات الأجنبية وغير ذلك من علم الدنيا.



فإنه وإن كان علماً لا يبتغى به وجه الله في أصله، لكن المسلم إذا تعلمه لوجه الله، وابتغى به خدمته، وسد ثغرة يُدخل منها على الأمّة، واحتسب ذلك كان له الأجر عند الله تعالى، وذلك يكون بإتقان علمه، ومحاولة تطبيقه في الدراسات التجريبية، ومن ثم العمل على التصنيع والإنتاج، ففي ذلك استغناء عن الكفار، وتوفير وقوة لاقتصاديات المسلمين.

وكذلك تعليم هذا العلم لأجيال المسلمين؛ لأنه من فروض الكفايات ويجب على المسلمين أن يكون فيهم من يقوم به.

وأيضاً فإن إتقان هذه العلوم سد الباب على الكفار حتى لا يدخلوا علينا في ديننا ما ليس منه بدعوى العلم المجرد الواقعي، فكلنا درس القاعدة المعروفة عند أهل العلوم: المادة لا تفنى لا وتستحدث من عدم، ولولا أنه وجد من المسلمين من نبّهنا أنها قاعدة فلسفية نابعة من اعتقادهم بقدم العالم لما عرفنا؛ لأن كثيراً منا أخذ الأمر على أنها قاعدة علمية مُسلّمة لا يُجادل فيها ولا علاقة لها بالدين البتة.

فإذا مكّنك اللّه من هذه العلوم ورأيت أن ستبدع فيها فقد وجب عليك أن تتقي اللّه فيها ، وأن لا يؤتى الإسلام من قبلك، والنبي ﷺيقول:«إن اللّه يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»[١]

(١) انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة،(ح ١١١٣).(هنا





فإذا كنت طالب علم، وتمكنت من أي فرع من الفروع فلا تنس نصيب الأمة منك، فإن بعض طلاب العلم يتعلم، ثم يقعد في بيته، ينتظر الناس أن يأتوه.

واعلم أنه إن جاءك واحد فمقابله مئة معرضون، فالواجب النزول للساحة، وعرض البضاعة على الناس، كما كان رسول الله ﷺ يعرضها على الناس حتى يسّر الله له من حملها واشترى بها ما عند الله.

وما قلناه له قنوات عديدة، فمن ذلك:

الإمامة



الحرص على إمامة الناس في المساجد، فإن الأئمة موضع ثقة الناس، ولا يشترط أن يكون عالماً، بل المراد حفظ شيء من القرآن والحرص على نفع الناس، وإذا استفتي فيما لا يعلم تحرّى لهم الفتوى الصحيحة.



كما يحرص على إلقاء بعض المواعظ والدروس ولو قراءة، لعل اللّه ينفع به، ولو لم يكن في ذلك سوى سد الباب في وجوه الجهلة وأهل البدع أن يتصدروا للناس فيضلوا ويضلوا بغير علم لكان فيه لمحتسبه من الأجر ما اللّه به عليم.

فإن كان لديك شيء من القرآن وحسن الصوت والترتيل، ولديك الصبر على متابعة الصلوات بالناس فإنه واللّه كل الخير، إن زدت إلى ذلك شيئاً مما تقدم فحسن إلى حسن.



الخطابة

وإن كنت ممن آتاه الله القدرة على الخطابة والوعظ والتأثير في المستمعين، بقوة الأسلوب، وبلاغة الألفاظ، واختيار المعاني والمواضيع، فإن كنت منهم فاعلم أنك أوتيت مفاتح القلوب بإذن الله، فكم غافل تنبّه، وكم نائم تيقظ، وكم غارق نجا، والفضل بعد الله تعالى لخطيب مفوّه، ولسان قاطع، تمر الآية والحديث بالواحد منا لا تحدث فيه أي تأثير، حتى إذا ما أجراها الله على لسان

بعض الخطباء قامت لها القلوب وقعدت، وأصغت لها الآذان واستمعت، فترى الأبدان مقشعرة، والقلوب وجلة، والعيون دامعة، فلماذا؟ إنه سحر البيان، وروعة الفصاحة، وقد قال ﷺ: «إنّ من البيان لسحراً»[١].

ولابد لك إذا كنت خطيباً أن تصقل هذه الموهبة بكثرة الاطلاع على كتب الأدب والشعر والقصص، وأن تمكّن نفسك من العقيدة الصافية والفقه الحسن وشيء من مهمات الحديث، وقواعد الشريعة، وكثرة سؤال العلماء قبل أن تقدم على خطبة معينة، فإن الخطابة سلاح ذو حدين، والخوف أن يقع الخطيب بجهله في الغلط فيُحسّن بروعة خطابه قبيحاً أو يُقبّح حسناً.



التعليم والتدريس

إلقاء الدروس العلمية والمحاضرات التي يُشرح فيها أمور تهم المسلم المعاصر، كالدعوة، والديانة،والكلام في المنكرات المنتشرة، أو تحليل المشاكل والمعضلات التي تمر بالأمة، ووضع الحلول

(١) أخرجه البخاري (ح٥١٤٦).



والخطط تمهيداً لتطبيقها، وكذلك شرح وبيان مقاصد الإسلام العامة، والثلب لأعداء الله من الكفار وأهل البدع، وكذلك الرد على من يهاجم الإسلام أو السنة، ونحو ذلك من الأمور العامة، فإن مكنك الله من إجادة ترتيب الفكر، واستخلاص العبر، وجمع النصوص وسردها وتحليلها؛ فلا تتردد في إلقاء المحاضرات متنقلاً بين البلاد وأنحاء المعمورة، فإن المحاضرات من أهم الأساليب الدعوية لقصرها، وانحسار مواضيعها، وخصوصاً إذا كان أمراً يعايشه المسلم ويبحث عمن يتكلم فيه.

التأليف

وقد يكون طالب العلم قاصر الطرف عما تقدم لكن له قدره فائقة على التصنيف والتحقيق والترتيب والانتقاء والتأليف من كتب منظورة، وعلوم مسطورة، فهذا والله مجال رحب، وميدان يسرح فيه الخيل السارح.





فإن كنت من هؤلاء فابتع فيما آتاك الله الدار الآخرة، فالتصنيف من أنفع الطرق الدعوية والعلمية للنهضة بالأمة، فإن العالم قد يجلس له العشرة والعشرون بل قل والمئة، والمئة كثير، لكن المصنف يقرأ له الألوف بركه ما يسر الله من الوسائل الحديثة التي تمكّن المصنف من نشر آلاف النسخ من مؤلَّفه فلا يدع بيتا إلا دخله، ولا مسجداً ولا مكتباً ولا مدرسة إلا وجدت مصنفات أهل الإسلام تتداولها الأيدي و تتلقاها الأفئدة، فتكون قد نشرت علماً و دعوت إلى الله و أنت خلف مكتبك، **هذه والله الغنيمة الباردة.**



المطابع الحديثة ساهمت في نشر العلم

قال الحافظ ابن الجوزي رحمه الله: «رأيت من الرّأي القويم أنّ نفع التصانيف أكثر من نفع التعليم بالمشافهة، لأني أشافه في عمري عدداً من المتعلمين، وأشافه بتصنيفي خلقاً لا يحصون ما خُلقوا بعد، ودليل هذه أنّ انتفاع الناس بتصانيف



المتقدمين أكثر من انتفاعهم من مشايخهم، فينبغي للعالم أن يتوفرعلى التصنيف إن وفق المتصنف، فإنه ليس كل من صنف صنف، و ليس المقصود جمع شيء كيف كان، و إنما هي أسرار يطلع الله عليها من شاء من عباده و يوفقه لكشفها،فيجمع ما فُرّق، أو يرتب ما شُتّت، أو يشرح ما أُهمل،هذا هو التصنيف المفيد»[١].

و مما يقال هنا أن التصنيف على فوائده فإنه مزلة لكثير من الناس فيصنف أي شيء، إما رغبة في المال، أو شهرة، أو تعجلاً منه.

و الواجب أن ينظر شيئاً ينفع الأمة لم يصنف فيه، أو يكمل نواقص مصنف في بابه، كما قال ابن الجوزي، فشرح مبهماً، يفصل مجملاً، يستدرك فائتاً، ومن أنفع ما يدخل في ذلك تحقيق مصنفات القدماء و إخراجها إلى الوجود سليمة من التحريف و السقط و نحوه.

فإن عُدم المصنف في الموضوع المعين و له ملكة التصنيف فليشمر له مستعيناً بالله، فإن في ذلك نفعاً عميماً، و سداً لثغرة من ثغور المسلمين.

---

(١) صيد الخاطر، (ص٢٠٧).



إن التمرس في طلب العلم و تعليمه، و تمضية أوقات العمر في ذلك هو الشرف الذي لا شرف فوقه أبداً.

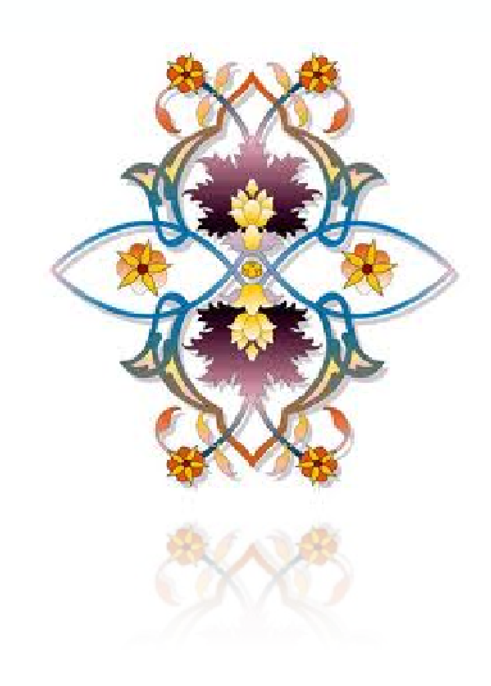
إن للعلم و الانشغال به في نفوس أصحابه لذة عجيبة، فإذا حصل الواحد منهم فائدة جديدة طار بها فرحاً، و غرق قلبه و عقله في نشوة الانتصار و الفوز التي عادةً ما يشعر بها من بذل جهداً و تعباً و مالاً في تحصيل شيء ثم يفوز به.

و لذلك كان لأهل العلم أحوال عجيبة في الهيام به، و بذل الغالي و النفيس من أجله، حتى إن ابن عباس رضي اللّه عنه في القائلة ينتظره إلى أن يخرج، حتى يسأله عن حديث سمعه من النبي ﷺ.

و أي لذة هذه التي يستعذب فيها الواحد منهم ترك داره و بلده و أهله و يرتحل السنين الطويلة متنقلاً بين البلاد من أجل تحصيل العلم ؟! ولو لم يكن لهم في ذلك من النعيم النفسي واللذة المتناهية في طلبه و تحصيله، ما تحملوا تلك المشاق من أنفسهم طوعاً هكذا دون مقابل يطلبونه إلا من الله تعالى وحده.

فهل تغشى قلبك الرغبة لتذوق تلك الحلاوة الموعودة، و التنعم بنعيم أهل العلم بعلمهم؟

فلئن أحس بشوق و تطلع إلى دخول هذا العالم الفسيح، عالم العلم الواسع، والاستمتاع برشف أطايب شرابه، و استنشاق زاكى عبيره فلعلك أن تضع يدك على طرف الطريق الذي سلكه أولئك المتنعمون بعلومهم، الأشقياء بجهل غيرهم بما هم فيه، و لكن العاقبة للتقوى و الأمور بخواتمها.





قال ﷺ : "خير الناس أنفعهم للناس"



بعض النّاس قوّته في ذهنه وفكره، وبعضهم قوّته في بدنه، ووقته، فأذا منّ الله عليك بالوقت والقدرة على الحركة والتنقّل فأنت تستطيع أن تطرق أبواب الجنة من خلال كثير من المجالات التي لا تحتاج إلا النشاط والوقت و القدرة على الحركة، **فمن ذلك:**

الحرص على المشاركة في الدعوة إلى الله بتوزيع الأشرطة و الكتب النافعة، أي أجر جزيل و ثواب عظيم تدركه إن حسنت منك النية، قال ﷺ:«**نضّر الله امرءاً سمع منّي مقالة فوعاها، ثم أدّاها كما سمعها، فرب حامل فقه ليس بفقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه**»(١).



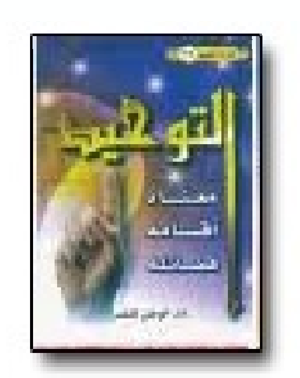
---

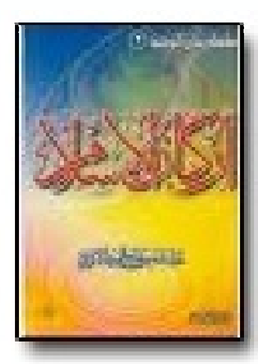
(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٨٣)، و أبو داود (ح ٣٦٦٠)، و الترمذي (ح٢٦٥٦)، وابن ماجه (ح ٢٣٠) عن زيد بن ثابت رضي الله عنه، وانظر سلسلة الأحاديث الصحيحة(ح ٤٠٤).

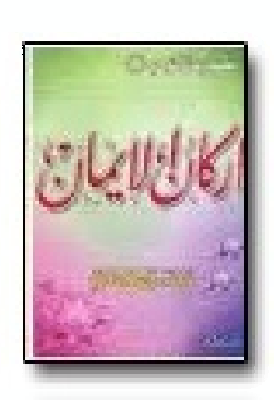


و أنت بحملك الشريط و الكتاب لا تحتاج أن تعي ما فيها، بل إنك لتؤديها كما قالها صاحبها لا كما سمعتها، فتأمن من الخطأ في النقل، و قد قال ﷺ: «**بلغوا عنّي ولو آية**»[1].

و أنت تبلغ آيات و أحاديث و مواعظ لا حصر لها، و تحمل الخير إلى الناس.







إن حمل الأشرطة و الكتب إلى الناس هو نصف الدعوة، لأن العلماء والدعاة يتكلمون ويعظون ويكتبون ويبقى الجزء الذي لا يقل أهمية، و هو حمل تلك الجهود وإيصالها إلى من يحتاج إليها، وأنت إذا احتسبت ذلك عند اللّٰه حصل لك الأجر، فلك غنمُها وعلى أصحابها غرمُها، تُرجع بالأجر الصالح، و يرجعون بالمحاسبة.

(١) أخرجه البخاري(ح ٣٤٦١).



تستطيع أن تدخل الجنة بصلة الرحم، أكثر من وصل أرحامك و تفقّدهم، واجمعهم ببعضهم، فإن النبي ﷺ يقول:«من أحب أن يُبسط له في رزقه و يُنسأ له في أثره فليصل رحمه»[(١)].



صلة الرحم سبب في سعة الرزق والبركة في العمر، ولما استعاذت الرحم بربها قال لها:«ألا ترضين أن أصل من وصلك، و أقطع من قطعك»[(٢)].

فقم بزيارة الإخوة في الله و كل من تعرف، و كوّن العلاقات الجديدة في عملك و في حيّك بالضوابط الشرعية، و أهمها:أن لا تجالس صاحب منكر أثناء فعله للمنكر، وأن لا تبالغ في الخلطة بمن تظن تأثيره عليك.

(١) أخرجه البخاري (ح ٥٩٨٦)، ومسلم (ح٢٥٥٧).

(٢) أخرجه البخاري (ح ٤٨٣٠) ومسلم(ح ٢٥٥٤).



وكن في ذلك كله مبلِّغاً للخير، تذكُر لأحدهم سُنّة، تنصحه، تذكره بشيء نسيه، تخبره عن محاضرة أو درس.

فإن لم يكن شئ من ذلك فإن مجرد وجودك في حياة الناس بزيك الإسلامي و هيئتك السُّنّية يبعث الروح في الأجساد الميتة، و يُبقى لدى الناس القناعة بأن الدين ما زال له من يحمله، و أن الدنيا بما فيها من الشر و الفساد مازال له فيها الخير لمن أراده و قصده.

العمل الخيري : تفقد المساكين و المحتاجين، و خصوصاً أولئك الذين تعففوا عن السؤال، فمن يدل أهل الخير عليهم إلا أنت، فإذا عرفت عن محتاج فكن أنت حلقة الوصل بينه وبين المنفقين، وقم بإيصال الحاجات إلى أصحابها.



اسع في حاجات إخوانك و جيرانك بل أي مسلم يحتاج إلى من يقوم بخدمة له، فـ: «من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته»[١].

---

(١) أخرجه البخاري (ح ٢٤٤٢)، ومسلم (ح ٢٥٨٠).



اتباع الجنائز من حقوق المسلم على أخيه، و في إتباعها أجر من الله تعالى عظيم.

قال رسول الله ﷺ:«حق المسلم على المسلم ست»، قيل: وما هنّ يا رسول الله؟



قال:«إذا لقيته فسلم عليه، و إذا دعاك فأجبه، و إذا استنصحك فانصح له، و إذا عطس فحمد الله فشمّته، و إذا مرض فعده، و إذا مات فاتبعه»[١].

وصح عنه ﷺ أنه قال:«من اتّبع جنازة مسلم إيماناً واحتساباً، و كان معه حتى يصلى عليها و يفرغ من دفنها، فإنه يرجع من الأجر بقيراطين، كل قيراط مثل أحد، و من صلى عليها ثم رجع قبل أن تدفن فإنه يرجع بقيراط»[٢].

---

(١) أخرجه مسلم (ح ٢١٦٢).

(٢) أخرجه البخاري (ح ٤٧)، و مسلم (ح ٩٤٥)، و عند مسلم أن ابن عمر لما سمع بهذا الحديث قال: «لقد فرطنا في قراريط كثيرة».

إماطة الأذى عن الطريق، أمر نتساهل فيه كثيراً، فخذ أنت منه بحظ وافر، و هو من شعب الإيمان، كما قالﷺ: «**الإيمان بضع و سبعون شعبة، أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، و أدناها إماطة الأذى عن الطريق**»[١].

و عن أبى هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: **بينما رجل يمشى بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخّره، فشكر الله له فغفر له**»[٢].

وقال النبي ﷺ لأبى برزة لما سأله أن يعلمه شيئاً ينتفع به: «**اعزل الأذى عن طريق المسلمين**»[٣].

و مما يمكنك استثمار وقتك فيه عيادة المريض، ففيها أجر من الله عظيم، وثواب منه جزيل، و هي من حق المسلم على أخيه المسلم، كما مر في حديث أبى هريرة قريباً.

---

(١) أخرجه مسلم (ح٣٥).

(٢) أخرجه البخاري (ح ٦٥٢)، و مسلم (ح ١٩١٤).

(٣) أخرجه مسلم (ح٢٦١٨).



كما ثبت عنه ﷺ أنه قال:«**من عاد مريضاً لم يزل في خُرفة الجنة**»، قالوا: يا رسول الله، وما خرفة الجنة؟ قال: «**جناها**»[١].

ومن أبواب الخير أيضا الإكثار من السلام، حدّث أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال:«**لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ افشوا السلام بينكم** »[٢].

و كان ابن عمر رضي الله عنه ينزل إلى السوق ليس له حاجة إلا السلام و الإكثار منه.

ومن أبواب الخير كذلك الرفق بالحيوان: بأن تسقيه، أو تطعمه، أو تطلب له دواء، أو تمنع عنه أذى، فكل ذلك من أسباب دخول الجنة.

ففي الصحيحين من حديث أبى هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ:«**بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب، ثم خرج**

---

(١) أخرجه مسلم (ح ٢٥٦٨).

(٢) أخرجه مسلم (ح ٥٤).

فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له»، قالوا: يارسول الله، وإن لنا في البهائم أجراً؟ قال: «في كل كبد رطبة أجر»[١].

بل في صحيح مسلم عن النبي ﷺ: «أنّ امرأة بغياً رأت كلباً في يوم حار يطيف ببئر، قدأدلع لسانه من شدة العطش، فنزعت له بموقعها فغفر لها به»[٢].

فإذا كان سُقيا كلب سبب في مغفرة الله تعالى بغي، أي زانية تمارس الزنا حتى تعرف به،فما الذي يؤخرنا عن طلب ذلك؟

تستطيع أخي أن تملأْ وعاء تضعه في نافذة المنزل و تتركه يشرب منه الطير، أو ترى كلاباً أو قططاً تذهب و تجيء فتريق بجوارها، أو تضع لها في وعاء بعض الماء لتشرب منه، أو أن تجمع بقايا طعامك و تأتى بها بعض القطط أو الكلاب أو الطيور فتطعمها، خير من أن يكون مصير بقايا الطعام حاويات الزبل مع رجيعالأطفال، ففي ذلك وقاية من ازدراء النعمة و أجر في رحمة الحيوان.

---

(١) أخرجه البخاري (ح ٢٣٦٣)، و مسلم (ح ٢٢٤٤).

(٢) أخرجه مسلم (ح ٢٢٤٥).

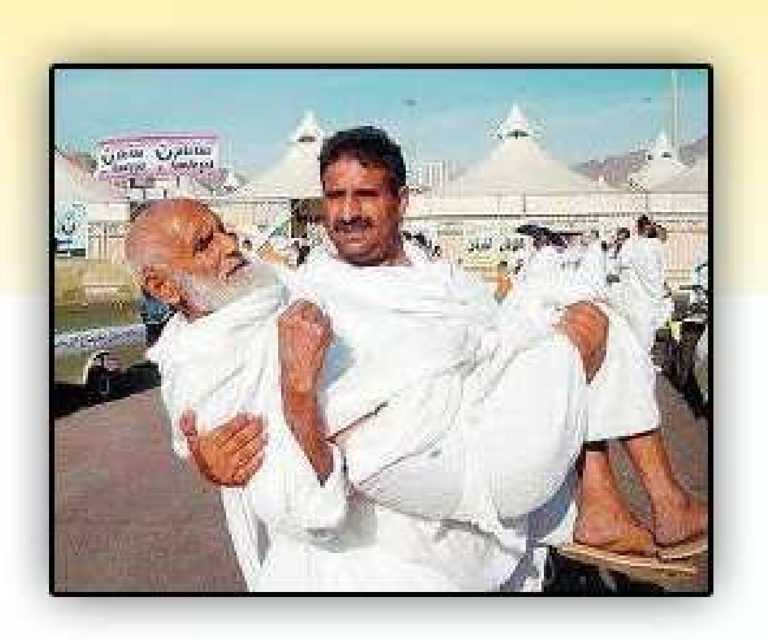
أرأيت أيها الحبيب! كم من مجال أتيح لك، و كم من باب فتح على مصراعيه و ما عليك ألا أن تلج، و ما بقى إلا أن تعي أين تضع قدمك، فدع عنك شغلك بالناس وعليك بما ينجيك أنت.

أترى عدلاً منك مع نفسك المسكينة أن تتشاغل بغيرك و تضيّع من بين يديك آلاف الفرص التي تتاح لك لتكون من أهلها ومن سكانها، ما الذي يعيقك عن فعل الخير و لو كان مما سهل فعله و عظم أجره، مما قد لا يكلفك أحياناً أكثر من أن تقبض عضلات وجهك شيئاً قليلاً لتفرج عن ابتسامة وضيئة في وجه أخ لك في الله، يهش لها ويبش، وقد يدعو لك بظهر الغيب، و قد تحيى في قلبه أملاً يحتضر، و قد تعيده إلى حظيرة الدين حياء منك، وقد.. وقد..، أشياء لا تحصر من حسنة واحدة عدّها النبي ﷺ صدقة: «**تبسمك في وجه أخيك صدقة**»[(١)].



(١) أخرجه الترمذي (ح ١٩٥٦)، وابن حبان،(ح ٤٧٤ و ٥٢٩)، و صححه الألباني في الصحيحة(ح ٤٥٤).

هل أدركت حياة والديك أو أحدهما



قال ﷺ : "الوالد أوسط أبواب الجنة"

إذن اجعلهما طريقك للجنة، فهما جنتك أو نارك كما جاء عن النبي ﷺ هذا المعنى.

قال تعالى قارناً حقهما بحقه جلّ و علا:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾[الإسراء:٢٤].

وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «**أمك**»، قال: ثم من؟ قال: «**أمك**»، قال: ثم من؟ قال: «**ثم أمك**»، قال: ثم من؟ قال: «**أبوك**»[١].

(١) أخرجه البخاري (ح ٥٩٧١) ومسلم (ح ٢٥٤٨).



و جاء آخر إلى النبيّ ﷺ يستأذنه في الجهاد فقال له:«أَحَيٌّ والداك؟» قال: نعم، قال: «ففيهما فجاهد»[(١)].

وفي رواية للحديث من طريق معاوية بن جاهمة أن أباه رضي الله عنه أتى النبيّ ﷺ يستأذنه في الجهاد، فقال له: «هل لك من أُم؟» قال: نعم، قال: «فالزمها فإن الجنة تحت رجليها»[(٢)].



و عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال:«رَغِمَ أنفه، ثم رَغِمَ أنفه، ثم رَغِمَ أنفه»، قيل: من يا رسول الله ؟ قال:«من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كليهما فلم يدخل الجنة»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري(ح ٣٠٠٤)، ومسلم (ح ٢٥٤٩).

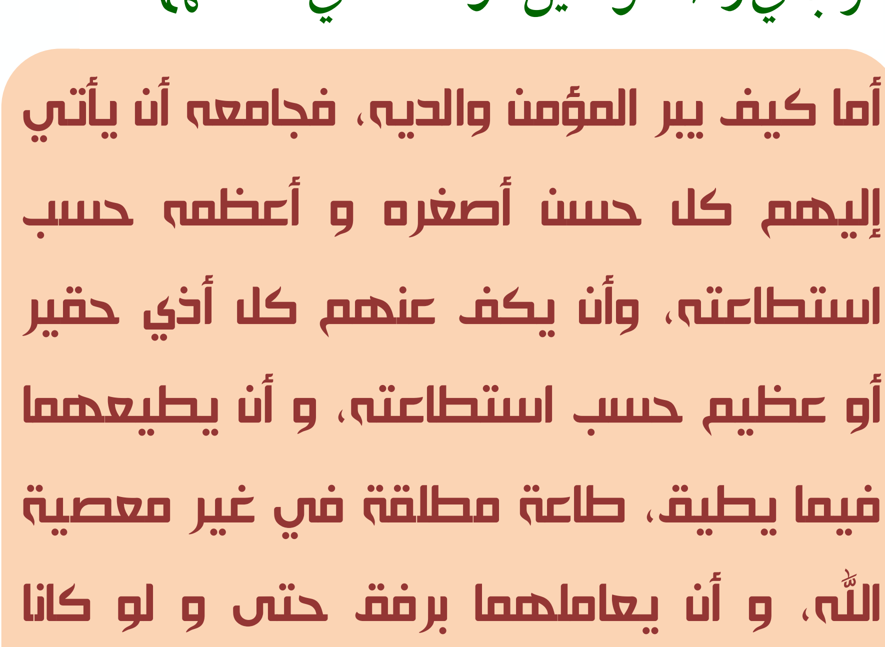
(٢) أخرجه أحمد(٣/ ٤٢٩)، و الحاكم (٢/ ١٠٤)، و صححه الألباني في الإرواء(٥/ ٢١).

(٣) أخرجه مسلم (ح ٢٥٥١)، رغم أنفه اي لصق بالتراب، وهو دعاء عليه بالخسارة.



و عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ :«أيّ العمل أحبّ إلى الله؟ قال: «**الصلاة على وقتها**» ، قلت : ثم أي؟ قال: «**بر الوالدين**»، قلت: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»[١].

وبر الوالدين سبب في سعة الرزق، و محبة الله تعالى ورضاه، قال ﷺ:«**رضا الرب في رضا الوالدين، وسخطه في سخطهما**»[٢].


أما كيف يبر المؤمن والديه، فجامعه أن يأتي إليهم كل حسن أصغره و أعظمه حسب استطاعته، وأن يكف عنهم كل أذي حقير أو عظيم حسب استطاعته، و أن يطيعهما فيما يطيق، طاعة مطلقة في غير معصية اللّه، و أن يعاملهما برفق حتى و لو كانا


مشركين أو فاسقين، و أجره على اللّه تعالى، قال ﷺ:«**الوالد أوسط أبواب الجنة**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (ح ٥٢٧)، و مسلم(ح ٨٥).

(٢) أخرجه الترمذي (ح ١٨٩٩)، و صححه الألباني في الصحيحة (ح ٥١٦).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ١٩٦)، و ابن ماجه (ح٢٠٨٩)، و الترمذي (ح ١٩٠٠)، وانظر الصحيحة،(ح ٩١٤).



نماذج

و أخبار البررة كثيرة، يكفيك منها سيد التابعين أويس بن عامر بن جزء بن مالك القرني المرادي اليماني :القدوة، الزاهد ، سيد التابعين في زمانه.

قال عنه ﷺ لعمر رضي الله عنه:«يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد اليمن، من مراد ثم قرن، كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو بها بر، لو أقسم على الله لأبرّه، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل»[(١)].

و عن أصبغ قال:«إنّما منع أويساً أن يقدم على النبي ﷺ بِرّه بأمه».

إنّ برّ الوالدين دليل على الوفاء و الاعتراف لصاحب اليد بفضله، ولا يفي بحق خالقه أبداً من يفي والديه بحقهما.

و لذلك نفهم سر التعبير عن عصيان الوالدين بالعقوق، مع أنه عصيان، غير أن العقوق يتضمن معنى زائداً، إذ هو عصيان من له حق عليك و أذيته، و تلمح

---

(١) أخرجه مسلم (ح ٢٥٤٢).



منه الجحود و التنكر للنعمة و الفضل و عدم الوفاء لصاحبه، فلذلك سمي عقوقاً و أصله من الشق و القطع، و العرب تسمي الرجوع بالإنكار و الأذى لصاحب الفضل على الشخص عقوقاً.

وأيّ نعمة و فضل لمخلوق على مخلوق أعظم من فضل الوالدين على ولدهما؟ و أي حق أعظم من حق قرنه الله تعالى بحقه أكثر من مرة ؟

ولا أظن العقول ولا العلوم ولا البديهيات ولا النظريات تستشنع منظراً وتستقبح مخبراً بعد الشرك بالله من ضرب ولدٍ والديه، أو شتمهما، أو حتى مجرد منعهما حقوقهما، فضلاً عما نسمعه هذه العصور من قتلهما، أو رميهما في حاويات النفايات[١]، أو غير ذلك من محدثات عصرنا فوق ما أحدثه أهل القرون الغابرة من الفجور و الطغيان ، نسأل الله السلامة.

---

(١) وفيه قصص عرفنا أهلها، و نحكى ذلك عن معاينة لا عن خبر مجهول.



وحق له ﷺ أن يعلنها: «إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه»، قالوا: و كيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «يسب أبا الرجل فيسب أباه، و يسب أمه فيسب أمّه»(١).

ومنه نلمح عظم هذا الأمر، فهو من أكبر الكبائر بمجرد أنه تسبب في لعن والديه و لو لم يقصد ذلك هو، فكيف بلعنهما عمداً من الولد؟ فكيف بضربهما؟ فكيف بما هو أشد؟

ثم انظر إلى استفهام الصحابة عن ذلك، فهو أمر لم يكن معهوداً حتى في أخلاق الجاهلية أن يسب الرجل والديه، و لذلك استفهموا عن ذلك و استغربوه، فأين من يقول لا إله إلا الله ممّن شتمُ والديه يجرى على لسانه كما يجري الهواء في رئته، نسأل الله الحماية.

فإن كانت معصيتهما بهذه المثابة من العظم و الخطورة فإن طاعتهما بمنزلة لا تخفى، فالله الله يا أيها المبارك أن تضيع من يدك باباً مُشرَعاً من أبواب الجنة، أمك أو أبوك أو كلاهما مفتاح بيدك للجنة إن أحسنت لهما، رَغِمَ أنفُك، ثم رَغِمَ أنفُك، ثم رَغِمَ أنفُك إن أدركتهما أو أحدهما ثم لم تدخل الجنة!!

---

(١) أخرجه البخاري (ح ٥٩٧٣).



قال ﷺ : "من كان له ثلاث بنات، فصبر عليهن، فأطعمهن وسقاهن وكساهن من جدته، كن له حجابا من النار"



البنات

من أبواب الجنة و أسباب دخولها، و وقاية من العذاب، لكن بشرط أن يحسن معاملتهنّ، و أن يسعى عليهن كما أمره الله تعالى،

قال ﷺ: «من كان له ثلاث بنات فصبر عليهن، و أطعمهن، و سقاهن، و كساهن من جدته كن له حجاباً من النار يوم القيامة»[(١)].



و إنما يكون ذلك إذا رباهن على شريعة الله، فعلمهن الديانة و الصيانة و العفاف و الحجاب، و راقب الله فيهن، خصوصاً في هذه العصور المتأخرة، فيعرف من صويحباتهن، ومن قريناتهن، و يخلص لهن النصح و المشورة، وما كان خير لهن أخذ به ولو كرهْن، وما كان فيه شر لهنّ رده و أعرض عنه و لو أحببن واشتهين، وإنّما يعامل الرجل بناته بما يُرضي الله تعالى، فإذا فعلت ذلك فأبشر و الله بالجنة.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٥٤)، و ابن ماجه (ح ٣٦٦٩)، وانظر السلسلة الصحيحة، (ح ٢٩٣).

إن هذا الأمر ليس بالهين، فإن صاحب البنات على ثغرة عظيمة، و لو أن كل أب قام بواجبه أمام الله في بناته ما رأينا هذه الأعداد الهائلة من الساقطات والمفتونات، اللواتي أصبحن لعبة بيد الفجرة و عباد الشهوة يقلبونهن كيف شاءوا، فأي شر و بلاء أصابنا بسبب إهمال تربية البنات ؟

إن انكباب الرجل على تربية بناته و الإحسان في ذلك خير من الطواف بالبلدان للدعوة، أو لطلب العلم، أو التجارة، أو أي شئ آخر إذا كان لا يقوم بذلك غيره، لأن ذلك في حقه واجب و فرض عليه، و قيامه به أوجب من الدعوة و طلب العلم، لأن ذلك فرض كفاية، و فعله هذا من باب الاشتغال بالمهم عن الأهم[١].

كان السلف الصالح يحثون لأبنائهم عما يصلح آخرتهم، لا تسمينهم وعلفهم حتى يصبحوا كالبهائم كما يفعل البعض في عصورنا هذه.

---

(١) و هذا طبعاً إذا كان هناك ثمة تعارض بين الاثنين ، بمعنى أنه إذا انشغل بالدعوة وطلب العلم فرط في تربية بناته، ولا شك أن السفر من أجل الدعوة و طلب العلم من الفضول لا من الأساسيات، و إلا فإن طلب العلم الواجب، و القيام بواجب الدعوة يمكن للعبد في بلدته و محل إقامته في الأغلب.



سعيد بن المسيب رحمه الله: من أجلة التابعين، زوج بنت أبى هريرة رضي الله عنه، كان رأساً في العلم و الزهد و الرواية حتى عمّت شهرته الآفاق، و جرت له محنة مع الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان حول البيعة.

وكان لسعيد ابنةٌ أراد عبد الملك خطبتها لابنه الوليد، فأبى عليه حتى إن عبد الملك ضربه مائه سوط، وصب عليه جرة ماء في يوم بارد.

ثم إن سعيداً افتقد أحد طلابه، فلما جاء سأله عن سبب تأخره فأخبره أن زوجته قد ماتت، فعرض عليه سعيد أن يتزوج، فقال الرجل: من يزوجني و ما أملك إلا درهمين أو ثلاثة ؟ فقال: أنا، فلم تمض تلك الليلة إلاّ و زوجته في بيته.

أرأيت الذي يريد الآخرة؟

هكذا و إلا على أنفسهم فليبك الآباء.

أو حسبت هذه الفتاة رخيصة على أبيها، أو أنها هانت عليه ؟
كلا، لقد جاءت لها الدنيا راكعة فردها عنها، واختار لها الآخرة حين زوجها طالب علم متدين من طلابه الذين عرفهم و خبر دواخلهم ..
ثم ماذا؟



قال الرجل: «فدخلت بها فإذا هي أجمل الناس، و أحفظ الناس لكتاب الله، و أعلمهم بسنة رسول الله ﷺ، و أعرفهم بحق الزوج».

أرأيت الصفات؟ وهل جاء بعبد الملك واحتاج إلى من أبى مبايعة ولديه إلا هذا الشرف؟

ثم ماذا كان ؟ قال الرجل:«ثم أتيته بعد شهر فسألني عن حالي و عن ابنته، فأخبرته أني على خير حال، فقال: إن رابك شيء فالعصا، ثم وجّه لي بعشرين ألف درهم».

أين الآباء الذين يعتبرون إعانة أصهارهم إهانة له و ذلاً و حاجة، أين هم عن ابن المسيب، إنه يفعل ذلك كله لا للزواج بل لابنته، إنه يريد أن يمهد لها حياة الديانة و الصيانة و العفاف، لا كما يفعل بعض الناس في أيامنا يزوجها من صاحب دنيا، لا يسترها بل يفضحها، و يعريها أمام الناس، و يجبرها على الفجور و المعاصي، ويقودها إلى النار و بئس القرار، و الثمن: تمتع بدنيا يوشك عن قريب تنقضي، ويبقى بعد ذلك تبعاتها.



إنّ تربية الأبناء هم كبير يتساهل فيه كثير من الناس، لأنهم لم يقعوا في بلاء، و لأن الله تعالى بمنه يتفضل بحفظ كثير من الأبناء و البنات لا لجهد آبائهم في تربيتهم بل ربما لحسنة قدمها الوالدان أو من فوقهما في جنب الله، فكان جزاء الله عوضاً عن ذلك حفظ الأبناء، حتى إنه جاء في تفسير قول الله تعالى في سورة الكهف: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف:٨٢].

عن ابن عباس رضي اللّه عنهما: «أنّهما حُفِظا بصلاح أبيهما، و لم يذكر منهما صلاحاً».

و عن محمد بن جعفر: «أنه كان بينهما و بين الأب الذي حُفظا به سبعة آباء».

فانظر عافاك الله، فإنه ليس ضرورة من صلاح الابن صلاحُ الوالد وجهده في تربيته، فكم رأينا من أبناء قمة في الصلاح وآبائهم في الحضيض، و العكس موجود.

و المراد أنه و إن كان ذلك متقرراً فلا يجعله الوالد حجة يستمري بها كسله و توانيه عن متابعة أبنائه، فتراه يقول: الهداية من الله، و إذا أراد الله له هداية فسيهتدي، ويضرب مثلاً بابن الجيران الذي هداه الله بعد ضلال دون تربية.

و هذا خطأ جسيم، فلا شك أن كل شيء بيد اللّه غير أنك مأمور بالاجتهاد في التربية، ثم بعد ذلك يمضى قدر اللّه بما سبق في علمه، و ما يدريك أن ابن الجيران الذي هداه اللّه إنما هداه لأمر لم تقدمه أنت فيضيع أبناؤك، و تحل الكارثة، و يقع الندم، وما أقسى الشعور بالندم حين لا ينفع الشعور به.

وأخص بذكر الهمّ بالأبناء: البنات، فإنهن خلقن ضعيفات ساذجات، وفي عصورنا هذه تعددت صور المكر من دعاة الرذيلة و الفسقة، فواللّه إنه لمن أسهل الأمور الإيقاع بفتاة ساذجة، والسبب الرئيس إهمال الأب والأم، والثقة العمياء، و ترك أسباب الفساد تعربد في نفوس البنات دون رادع ولا وازع ولا ناصح، فماذا تبغي من نفوس هذا حالها؟



قال ﷺ : "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان"



المُنكر طالما استتر به صاحبه فإن لا يضر غيره، و أما إذا فشا و جاهر به أصحابه و استعلن به الفسقة، فإن الحال هنا يستوجب قيام أهل الصلاح بالاحتساب عليهم، أي إقامة فريضة الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، تلك الفريضة الغائبة التي فضلت بها هذه الأمة، قال تعالى:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠]

و قد أمر الله أن تتفرغ طائفة للقيام بهذه الفريضة فتأمر بالمعروف و تنهى عن المنكر:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤]



وقد توعد النبيّ ﷺ هذه الأمة بأشد العقوبات إذا هي تخلت عن الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، قال ﷺ: «لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون و الأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال و الميزان إلا أخذوا بالسنين و شدة المؤنة و جور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله عز وجل و يتحروا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم»[1].



(١) أخرجه ابن ماجه (ح ٤٠١٩)، و الحاكم (٤/ ٥٤٠) عن ابن عمر، و صححه الالباني في الصحيحة، (ح ١٠٦).



وقال أيضاً :«ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي هم أعز و أكثر ممن يعمله ثم لم يغيروه إلا عمهم الله تعالى منه بعقاب»[١].

و قال كذلك:«من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[٢].

فالبشرى كل البشرى لأهل الحسبة، فبهم تحفظ البلاد، و ينعم بالخير العباد، و هم جبهة المسلمين في وجه أهل الشر و الفساد، الذين لا يرجون لله وقاراً، ولا يخافون منه عقاباً.

فإن كنت من أهل الحسبة فتعلم أحكامها و آدابها، وقم بها للّه تعالى خاصة من دون الناس، ولا يخالط نيتك التعالي على أهل المنكر، واحذر من الكبر، و إذا رأيت مبتلى فاحمد اللّه، واستعذ من حاله، وإياك من كشف المستور، ولا يكن همك الانتقام لنفسك، ولا معرفة دواخل الناس.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١) ، و أبو داود (ح ٤٣٣٨)،و ابن ماجه (ح٤٠٠٥) ، و الترمذي (ح ٢١٦٨) ، عن أبي بكر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (ح٤٩).



وقد كان أعلام السلف الصالح أهل احتساب و إنكار للمنكر، يقومون بذلك على من فعل المنكر أياً كان موضعه و منصبه، ومن أشهرهم بعد الصحابة أبو حازم، و الحسن، و سعيد بن جبير، و العز بن عبد السلام، و شيخ الإسلام ابن تيمية، و غيرهم كثير.

إنك حين تنكر منكراً إنما تظهر ثلاثة دوافع نفسية تفجر فيك القوة لإنكار المنكر:

أولها: محبة اللّه تعالى فوق محبة غيره، و الغيرة على محارمه أن تنتهك.

و ثانيها: خوفك من اللّه فوق خوف المخلوق.

و ثالثها: حرصك الشديد، و حبك لمجتمعك، و خوفك أن تنتشر فيه الرذيلة.

ولذلك كان المحتسب في الحقيقة جديراً بأعلى مراتب الإيمان، فمن كمل فيه خوف الله و محبته فذلك المبرز حقاً.



إن إنكار المنكر ليس نصيحة خاصة تقدمها لمسلم، كلا بل هو موعظة عامة تحيي به قلوباً كثيرة، و أقل ما هنالك أن المنكر إذا استُعلن به ولم ينكر تحول إلى معروف، و في هذا تطور خطير في اتجاه تحليل الحرام.



و إذا أنكره المحتسب وجّه رسالة قوية إلى صاحب المنكر أن المجتمع لن يسمح لك بأن تثقب السفينة، فإن كنت لا بد فاعلاً فاستتر بستر اللّه، فإن الذنب حينئذ يصبح شأنك وحدك.

هذا هو ما يعبر عنه بالسخط الاجتماعي، و هو من أشد أدوات الردع التربوي الذي فقدناه للأسف الشديد حتى من العاملين في الدعوة بحجج واهية، و البعض يغمض عينيه عن المنكر حتى لا يراه فيجب عليه الإنكار، وهي الحماقة بعينها.



إن تجاهلك للمنكر لن يغير من الواقع المر الذي تعيشه، ولن يغير من تكليفك بواجب الاحتساب، والنّار إذا لم تطفئها في مكانها سرت إلى دارك وأحرقتك ، وكذلك المنكر.

أقول هذا حتى لا يظن ظان أنّ الاحتساب أمر مستحب، أو أنّه نوع من النّفل المطلق ، بل هو شعيرة كبيرة لها أثرها في حماية المجتمع وصونه عن الفساد بكل



والحد الأدنى من الاحتساب الواجب على كل مسلم عاين أو حضر المنكر، والفضيلة في التفرغ للاحتساب، أو العمل في هيئات الحسبة، فالحسبة مسؤولية الجميع !

إذن لعلك من أسود الله



﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾

[البقرة: ١٩٠].



أَلَك رغبة و طموح في منازل عالية، و أمنيات غالية، و درجات سامية: منازل الشهداء، بلغنا الله إياها، **فهنيئاً لك و الله على هذه النفس.**

إن تقلبنا في هذه الأيام في الدنيا، واختلاط أنفسنا بها، وتملق أرواحنا لها كبّل منا النفوس، وقعد بنا عن معالي الأمور، و أصبحنا نتطلع إلى سفاسف و دونيات ما كان شأن المؤمنين بها لولا الوهن: حب الدنيا و كراهية الموت.

الشهيد

ذلك اللقب السامي، و المنار العالي الذي شرفت به الأمة، و تبوأت به مناصب العز و الرفعة طوال أيامها، لقد جاء في الشهيد من اللّه كرامات تدمع لها العيون فرحاً و أملاً، و تبكي لها القلوب شوقاً و رغباً.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[آل عمران: ١٧٠].

الشهيد هو صاحب الصفقة و البيعة مع الله تعالى، الشهداء هم الذين بايعهم الله فأخذ منهم و أعطاهم:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[التوبة:١١١].

وحدّث المقداد بن معدي كرب رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال:« للشهيد عند الله ست خصال

يغفر له في أول دفعة	و يرى مقعده من الجنة	و يجار من عذاب القبر
و يأمن من الفزع	و يوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها	
و يزوج اثنتين و سبعين زوجة من الحور العين	و يشفع في سبعين إنساناً من أقاربه ()	

(١) أخرجه احمد(٤/ ١٣١) ، و الترمذي (ح ١٦٦٣)، وابن ماجه (ح ٢٧٩٩)، وصححه الألباني في أحكام الجنائز،(ص ٣٥).

وقال ﷺ: «الشهداء على بارق نهر بباب الجنة، في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة و عشياً»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «ما من مكلوم يكلم في الله إلا جاء يوم القيامة و كلمه يدمي، اللون لون دم، و الريح ريح مسك»[٢].

فعليك بالجهاد في سبيل الله في أي راية للجهاد ترتفع، و في أي موطن تسنح الفرصة فيه لإقامة جهاد شرعي، فالجهاد هو أسرع طريق إلى الجنة جعلنا الله من أهلها.

نماذج

المجاهدون كثير، أولئك الذي سطروا للتاريخ بدمائهم أروع قصص التحضية و الفدائية، الذين قدموا أغلى ما يملكون لأحب من يحبون، وفي سبيل رضاه يقتُلون و يُقتلون.

(١) أخرجه أحمد في المسند(١/ ٢٦٦) وصححه الألباني في صحيح الترغيب (ح ١٣٧٨).

(٢) أخرجه البخاري (ح ٥٥٣٣).

فمنهم **عبد الله بن عمرو بن حرام**، الصحابي الجليل، الذي كلمه الله كفاحاً بلا ترجمان، روى الطبري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: قال لي رسول الله ﷺ: « **ألا أبشرك يا جابر؟** قال: قلت: بلى يا رسول الله، قال: « **إن أباك حيث أصيب بأحد أحياه الله، ثم قال له: ما تحب عبد الله بن عمرو أن أفعل بك؟ قال: يا ربّ، أحبّ أن تردني إلى الدنيا فأُقاتل فيك مرة أخرى** »(١).



و منهم الإمام، السيد، المجاهد، الأمير، الصحابي الجليل، **خالد بن الوليد**، فارس الإسلام، وليث المشاهد، و قائد المجاهدين.

قال عنه رسول الله ﷺ: « **خالد سيف صبه أو سله الله على الكفار** »(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٦١)، والترمذي (ح ٣٠١٠) وابن ماجه (١٩٠) وصحّحه الشيخ الألباني في الصحيحة (ح٣٢٩٠).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٨) وانظر الصحيحة للألباني (ح ١٢٣٧).



وكان رضي اللّٰه عنه يقول عن نفسه:«ما من ليلة يهدي إليّ فيها عروس أنا لها محب، أحب إليّ من ليلة شديدة البرد كثيرة الجليد في سرية أصبح بها العدو».

و كان يقول أيضاً:«ما أدري من يومى أفر، يوم أراد اللّٰه أن يهدى لي فيه شهادة، أو يوم أراد اللّٰه أن يهدي لي فيه كرامة».

و قال قيس بن حازم:سمعت خالداً يقول: «منعني الجهاد كثيراً من القراءة».

و قالوا له مرة:احذر الأعاجم لا تسقيك السم، فقال: ائتوني به، فأتى به، فقال: بسم اللّٰه، وشربه، فلم يضرّه.

ولما حضره الموت بكى، و قال:«لقيت كذا و كذا زحفاً، وما جسدي شبر إلا وفيه ضربة بسيف، أو رمية بسهم، و ها أنا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت العير، فلا نامت أعين الجبناء».



وأعـبُر طيات الزمان، و أطير من بدء التاريخ لأذكر بجهاد القرن الرابع عشر، ضد القوة الثانية على الأرض، و هو الجهاد في أفغانستان، يوم اشترك جميع المسلمين في حرب دولة الكفر، فقهروها و أذاقوها مُرّ الهزيمة و علقم الخيبة، وسطرت دماء الشهداء أروع ملاحم التاريخ الجهادي، و كانت أفتك أنواع الأسلحة و الخطط العسكرية تتلاشى أمام قوة الجهاد الإسلامي.

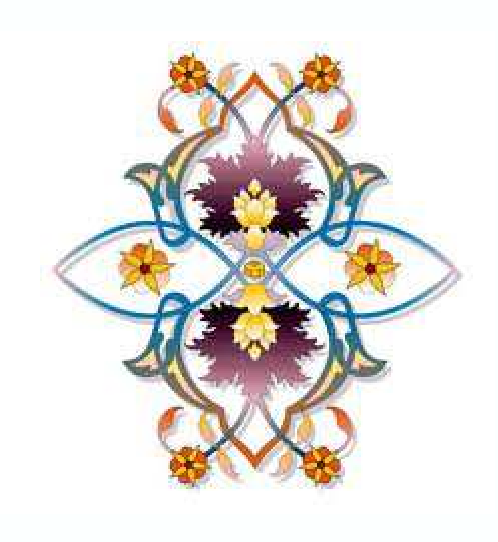


لقد برهنت تلك السنين الجهادية أن الأمة ما زالت بخير، و أنها فقط تتلمس القيادات التي ترفع رايات الجهاد ، و تفرض الإسلام بالقوة في عزة المسلم، لا أن تعرضه كأنه بضاعة منتهية الصلاحية يستميت صاحبها في إثبات أنها ما زالت صالحة للاستهلاك !



لقد رأينا أيضاً كيف فعلت القلة المؤمنة بالصليبية الحاقدة في البوسنة، و كيف تنادت أقطار الكفر كلها لوضع اتفاقية السلام خوفاً من نمو الحركة الجهادية في وسط أوروبا، و هذا يعني لهم زلزلة العرش الصليبي بل زواله.

لقد اشتاقت الأمة لأمثال خالد وصلاح الدين... لقد اشتاقت الأمة لأمثال أولئك الأسياد الأمراء الكبراء.. ليفكوا إسارها و يعيدوا لها مجدها، و يرفعوا من خسيستها في عصر قل فيه من يقول: ها أنا ذا !!





قال ﷺ : "من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته"





فاعلم إذاً أن القيام على مصالح المسلمين العامة فيه أجر كبير من الله تعالى إذا أحسن المؤمن النية واحتسب الأجر من الله تعالى، ولو كان يأخذ على عمله هذا أجراً و راتباً من الدولة

فسواء كنت جندياً في الجيش مرابطاً على الثغور، أو كنت شرطياً تقوم على حراسة المسلمين في أنفسهم و أموالهم و أعراضهم، أو كنت من رجال الجمارك، أو الجوازات، أو حرس الحدود، أو خفر السواحل، قائم على حراسة حدود البلاد من تسرب المحرمات و المجرمين و كل ما يقلق الأمن و يهز الطمأنينة في نفوس الناس، فأنت على ثغرة عظيمة يجب أن تحتسب الأجر فيها على الله تعالى.

لا تتعامل مع وظيفتك هذه على أنها عمل دنيوي لا أجر فيه، فيكون ذلك مدعاة للقصور و ضياع الوقت بلا فائدة.

بل اجعله طاعة تتقرب بها إلى الله تعالى، فإن ذلك باب عظيم من أبواب الأجر من الله، فكل لحظة تمر عليك في عملك هذا أنت مأجور عليها، ثم إنه حافز



للعطاء و الرقي، لأنك حينئذ تحس بأن اللّه تعالى هو الرقيب الحسيب، إذ أنك تريد وجهه تعالى، فلا يهم حينئذ لو غاب رئيسك في العمل أو مديرك، لأنك أصلاً تراقب من لا يغيب عنك ولا تغيب عنه لحظة واحدة و هو اللّه جل و تقدس.



قال ﷺ: «**عينان لا تمسهما النار أبداً: عين بكت من خشية اللّه، و عين باتت تحرس في سبيل اللّه**»[1].

وكذلك إن كنت موظفاً في الأمور المدنية التي تختص بحاجات الناس كالبلديات، و الأحوال المدنية، وكذلك الحقوق، و مصلحة المياة، و الضمان الاجتماعي، أو أي مصلحة من مصالح الدولة، لا تظن أنك في عمل عادي أبداً و الذي خلقك و برأك، إنك لعلى شفير

(١) أخرجه الترمذي (ح ١٦٣٩) ، و صححه الألباني في صحيح الجامع،(ح ٤١١٣) وانظر الصحيحة له (ح ٢٦٧٣).



هاوية، إما أن تكون وظيفتك هذه فكاكك من النار، أو تكون أغلالاً تجر بها إليها، فإن أنت احتسبت الأجر من الله تعالى في قضاء حوائج المسلمين، و يسرت عليهم أمورهم ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، و سارعت إلى تقدير ظروف بعضهم كالمرأة و الكبير و المسافر الذي قدم من مكان بعيد، فقد استوجبت من الله الأجر، وقد يكون دعاء الناس لك هو جواز مرورك إلى الجنة.

و أما إن كان ديدنك التعالي على الناس و تعسير أمورهم، فلا ترحم امرأة، ولا تقدر شيخاً، ولا تعذر سفيهاً، وتماطل في إنجاز معاملاتهم، و تؤخر ما لا يستحق فاعلم أنك تعرضت لباب كبير من الشر، و جعلت من نفسك غرضاً و هدفاً لدعوات من الناس قد لا تبقي عليك ولا تذر.

و الجزاء من جنس العمل، قال ﷺ: «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه، و من ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به»[1].

---

(١) أخرجه مسلم (ح ١٨٢٨).



قال  :

"استعن بالله
ولا تعجز "





لا بأس، هناك بقية :

كُفّ أذاك عن الناس، قال ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه و يده»[١].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل ؟ قال:«الإيمان بالله، و الجهاد في سبيله»، قال: قلت: أي الرقاب أفضل ؟ قال : «أنفسها عند أهلها، و أكثرها ثمناً»، قال: قلت فإن لم أفعل ؟ قال: «تعين صانعاً، أو تصنع لأخرق»، قال: قلت: يا رسول الله، أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل ؟ قال : «تكف شرك عن الناس، فإنها صدقة منك على نفسك »[٢].

و أنواع الأذى الذي يضر المسلمين كثيرة، و أذكر لك أشهر ما يقع العبد فيه في ليله و نهاره:

(١) أخرجه البخاري (ح١٠)، و مسلم (ح٤١).

(٢) أخرجه البخاري (ح٢٥١٨)، و مسلم (ح٨٤).



١ . **الاعتداء الجسدي**: بقتل أو جرح أو ضرب و غير ذلك.

فأما القتل ففيه ذلك الوعيد العظيم من الله تعالى:

﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[النساء:٩٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت نبيكم ﷺ يقول:«يجيء المقتول متعلقاً بالقاتل تشخب أوداجه دماً فيقول: أي رب، سَلْ هذا :فيم قتلني»[١].

ومن ذلك القتل في الهرج و الفتن والرايات العمية، لا يدري القاتل فيم قتل ولا المقتول فيم قُتل، فقد جاء عنه ﷺ: « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل و المقتول في النار، قالوا: يا رسول اللّه هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه »[٢].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٢٢) وابن ماجه(ح ٢٦٢١) والنسائي (٧/ ٨٥ و٨/ ٦٣).

(٢) أخرجه البخاري (ح ٣١) ، و مسلم (ح ٢٨٨٨).



وكثير منّا يظنّ أنّه بعيد عن القتل !

والحق أنّ العبد لا يحقّق ذلك إلاّ بالابتعاد عن أسبابه، وإلاّ فأكثر من الذين قتلوا لم يكونوا يريدون القتل كنتيجة نهائية أفعالهم، ولكنّ الشيطان استدرجهم وسوّل لهم من الوسائل والأسباب ما أوقعهم في ذلك، فقد نهى النّبيّ ﷺ مثلاً عن المزاح بالحديد فضلاً عن استعماله في العراك، قال ﷺ: «من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه حتى يضعها وإن كان أخاه لأبيه وأمه»[1].



ولا يشترط أن يُعاقب العبد في الدنيا حتّى يكون قاتلاً، فالذين يعبثون بسياراتهم فيما يُسمى (التفحيط) إن نتج عن فعلهم موت نفس معصومة فهم عند الله قتلة وإن كان القانون لا يجرمهم بذلك.

وسائر أنواع الاعتداء الأخرى كذلك.

---

(١) أخرجه مسلم (ح ٢٦١٦)

٢. ومن ذلك أكل أموال الغير بالباطل: كمن يستأجر أجيراً - خادماً أو سائقاً أو بائعاً و نحو ذلك - ولا يؤدي له كل حقه، فقد صحّ عن النّبيّ ﷺ أنه قال:

«قال اللّه: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، ومن كنتُ خصمَه خصمتُه: رجل أعطى بي ثم غدر، و رجل باع حراً فأكل ثمنه، و رجل استأجر أجيراً فاستوفى منه و لم يعطيه أجره»[١].

أو أخذ أموال ناس ديناً ولا ينوي ردها، و قد قال ﷺ: «من اخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه، ومن أخذ يريد إتلافها أتلفه الله»[٢].

وكذلك عدم الوفاء بشروط العقود سواء كانت استصناعاً أو مزارعة أو غير ذلك، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾[المائدة:١].

أو الأخذ من أموال صاحب المال خلسة، أو استعمال أمواله بدون إذنه من قبل العامل؛ فإن المال أمانة عنده، وهذا من الخيانة.

---

(١) أخرجه البخاري (ح ٢٢٢٧).

(٢) أخرجه البخاري (ح ٢٣٨٧).

ومنه تعطيل مصالح المسلمين إلا برشوة أو عوض مالي أو معنوي، وهذا داخل في الرشوة.

ومنه الغش و التدليس في البضائع و السلع، قال ﷺ: «من غش فليس مني»[١].

ومنه استغلال الفقراء و المساكين و المحتاجين ببيع الآجل المضاعف أضعافاً كثيرة تتنافى مع أدنى حقوق الأخوة الإسلامية، قال ﷺ: «رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا اقتضى»[٢].



و أول ما يقضى فيه يوم القيامة الدماء[٣]، ثم ما دونها، ولا يدخل عبد الجنة أو النار حتى يُقتَصّ منه لمن ظلمهم، و يوم القيامة لا درهم ولا دينار، إنما الحسنات و السيئات.

---

(١) أخرجه مسلم (ح ١٠٢).

(٢) أخرجه البخاري (ح ٢٠٧٦).

(٣) أخرجه البخاري (ح ٦٨٦٤)، و مسلم (ح ١٦٧٨).



قال النّبيّ ﷺ: «أتدرون ما المفلس؟ إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة و صيام و زكاة، و يأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، و أكل مال هذا، وسفك دم هذا، و ضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته، قبل أن يقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار»[١].



٣. و من أنواع الأذى الوقوع في غيبة المسلم،

و هي من كبائر الذنوب، قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ﴾

[الحُجُرات:١٢]

(١) أخرجه مسلم (ح ٢٥٨١).



و قال ﷺ :«**أتدرون ما الغيبة**»، قالوا: الله و رسوله أعلم، قال: «**ذِكْرُك أخاكَ بما يكره**»، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال: «**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبتَه، و إن لم يكن فيه فقد بهتّه**»[١].

٤. ومن أنواع الأذى بل هو من أشدها أذى الجار، سواء في المنزل أو المدرسة أو العمل، فإن النبي ﷺ يقول:«**ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورّثه**»[٢].

وقال ﷺ :«**من كان يؤمن بالله و اليوم الأخر فلا يؤذ جاره**»[٣].

و قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـًٔاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ﴾ [النساء:٣٦].

---

(١) أخرجه مسلم (ح ٢٥٨٩).

(٢) أخرجه البخاري (ح ٦٠١٥)، و مسلم (ح ٢٦٢٥).

(٣) أخرجه البخاري (ح ٦٠١٨)، ومسلم (ح٤٧).





و أذى الجار أشكال و أنواع، فذكره بما يكره، و الوقوع في عرضه، والاعتداء عليه أو على أهله.

كذلك رمي القاذورات أمام بابه، أو التجسس عليه و التطلع إلى عوراته و أهله، بل حتى عدم تفقد الجار، و عدم الالتفات إلى حاجته مع الاستطاعة هو من علامات ضعف الإيمان، قال ﷺ: «ما آمنَ بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به»[(١)].

ومن أشد أنواع الأذى التعرض لنساء الجيران

فقد صح عنه ﷺ أنه قيل له: «أي الذنب أعظم ؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلق»، قلت: ثم أي؟ قال: «تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك»، قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني بحليلة جارك»[(٢)].

---

(١) انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (ح ١٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (ح ٧٥٣٢) ومسلم (ح ٨٦).



ولا يحقرن المسلم شيئاً من المعروف يؤديه لجاره، وكان ﷺ يوصي أبا ذر رضي الله عنه إذا طبخ لحماً أن يكثر من المرقة و يتعاهد جيرانه[١].



و يدخل في الأذى أن يستعرض الجار ذي الغنى بغناه أمام جاره الفقير، وقد قال ﷺ: «لا يشبع الرجل دون جاره»[٢].

٥. ومن أنواع الأذى تتبع عورة المسلم: و قد قال ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته»[٣].

---

(١) أخرجه مسلم (ح ٢٦٢٥).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٥٥).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٤٢٠) وأبو داود (ح ٤٨٨٠).

ويدخل في هذا الفرح بفضيحة المسلم والإسراع إلى شهودها ونشرها ، والواجب على المسلم إذا سمع أو قرأ أو شاهد ما فيه إساءة لمسلم أن يستره ولا يبديه ، وإن لم يره أو يسمعه أن لا يسارع إلى ذلك ، وليسأل الله العافية.

٦. ومن أنواع الأذى النميمة: وهي نقل الكلام بين الناس لغرض الإفساد، وهي أشد من الغيبة، حتى إن النبي ﷺ سمّاها الحالقة، فقال: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام و الصلاة و الصدقة»، قالوا: بلى، قال: «صلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة.. لا أقول تحلق الشعر و لكن تحلق الدين»[١].

ومرّ النبي ﷺ بقبرين يعذبان من قبور المسلمين فقال: «أما إنهما يعذبان، وما يعذبان في كبير، بلى إنه لكبير، أما أحدهما فكان لا يستتزه من بوله، و أما الآخر فكان يمشي بين الناس بالنميمة»[٢].

(١) أخرجه أبو داود (ح ٤٩١٩)، و الترمذي (ح ٢٥٠٩).

(٢) أخرجه البخاري (ح٢١٦)، ومسلم (ح ٢٩٢).



٧. ومن أنواع الأذى السخرية و الاستهزاء أو الانتقاص من المسلم:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[الحُجُرات:١١].

فالمسلمون سواسية

ولا فرق بين عربي ولا عجمي، ولا أبيض ولا أسود إلا بالتقوى

﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾[الحُجُرات:١٣].

وقال ﷺ: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، يسعى بذمتهم أدناهم، و يجير عليهم أقصاهم، و هم يد على من سواهم»[١].

و تنقص الناس هو من الكبر المذموم، قال ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه ذرة من كبر» قال رجل: يا رسول الله، إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً و نعله حسناً، قال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق و غمط الناس»[٢].

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٨٠) وأبو داود (ح١٥٩١و٢٧٥) وابن ماجة (ح٢٦٥٩ و٢٦٨٥).

(٢) أخرجه مسلم(ح٩١).

٨. ومن أنواع الأذى الخيانة و الغدر، وقد قال ﷺ :«أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منها كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، و إذا حدّث كذب، و إذا عاهد غدر، و إذا خاصم فجر»(١).

٩. ومن أنواع الأذى خطبة الرجل على خطبة أخيه، أو بيعه على بيعه، فإن هذا من أسباب العداوة و الشحناء التي نهى عنها النبي ﷺ :«لا يخطب الرجل على خطبة أخيه، ولا يبع على بيعه»(٢).

فلا يجوز للرجل أن يتقدم لخطبة امرأة مخطوبة حتى يتأكد له أن الخاطب الأول قد فسخ الخطبة، أو أن يرده أهل المرأة، و مثله البيع سواء بسواء. و يدخل في ذلك سائر أنواع المداخلات كالوظائف و الفرص الدراسية، فلا يجوز الحصول عليها بطريق المجاملة أو الواسطة فذلك ظلم وأذى.

(١) أخرجه البخاري (ح ٣٤)، و مسلم (ح٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (ح ٢١٤٠)، و مسلم (ح ١٤٠٨).



١٠. ومن أنواع الأذى: التعرض للنساء في الطرقات و الأسواق و كافة أماكن وجودهن، وهذا والله من الخصال الدنيئة، التي اعتادها كثير من أبناء هذا الزمان، و لعمر و الله إن فاعل ذلك غالبا ما يبتلى في أهله، فإن الزنا و مقدماته دين، و قصص من ابتلاهم الله و عاقبهم في أعراضهم معروفة مشهورة، و هو داخل في تتبع عورة المسلم، فضلاً عن العقوبة في الآخرة

١١. ومن أنواع الأذى الجلوس في الطرقات، و تضييقها على أهلها، أو سدها دون وجه حق، سواء بالسيارات أو بالأبدان، ورفع الصّوت فيها واللعب الذي يلحق الأذى بمن سير فيها

و يدخل في ذلك بل هو أشد: التلاعب بالسيارات بالتفحيط، و تجاوز الإشارات المرورية و نحوه، لأن في ذلك فضلاً عن الإسراف تعريض حياة و أملاك الآخرين للخطر المحتم



قال ﷺ: «إياكم و الجلوس في الطرقات»، قالوا: يا رسول الله، ما لنا بد من مجالسنا نتحدث فيها، قال رسول الله ﷺ: «فإذا أبيتم فأعطوا الطريق حقه»، قالوا: وما حقه ؟ قال: «غض البصر، و كف الأذى، ورد السلام، و الأمر بالمعروف، و النهي عن المنكر»[(١)]

١٢. ومن أشد أنواع الأذى المعاكسات: أقصد تلك التي يستمتع أصحابها بإزعاج أصحاب المنازل، سواء بعدم التحدث إذا رفع سماعة الهاتف، أو بالسب و الاستفزاز، وهذا الفعل مأثمه عظيمة لا يدري صاحبها عظمها إلا إذا أنزل اللّه به عقوبة عاجلة، استجابة لدعاء مظلوم أقضّ مضجعه و أسهر ليله.

أجمل شعور يشعر به مؤمن أن يبيت و هو مطمئن البال أن ليس لأحد من الخلق له عنده حق

إنك لتعجب كل العجب أن يسهر العبد ليله مهموماً يفكر في دَيْنه، وماذا عساه يقول لأصحاب الحقوق الماديّة إذا طالبوه؟

---

(١) أخرجه البخاري (ح ٦٢٢٩) ومسلم (ح ٢١٢١).



ثم هو لا يبالي بأصحاب الحقوق المعنوية الذين ربما كان دينهم أشد و أنكى و أعظم، و أدعى لسهر الليالي ومكابدة الهموم !

دَين الذي شتمتَه، أو الذي انتهكتَ عرضه، أو الذي لمزتَه، أو سخرتَ منه، أو اغتبتَه، أو هدمتَ بيته بكلمة منك، أو ضربتَه أو قتلتَه، أتظن هذه الحقوق ليس لها مطالب؟ و تظن أن أصحابها تاركيها؟



أمّا أصحابها فإنهم إن لم يعلموا بها اليوم فإن لهم من يذكرهم يوم القيامة، يوم نشر الدواوين، و يكون الجزاء جنة أو ناراً، و الحساب لا درهم ولا دينار، إنما الحسنات و السيئات.

و أمّا الجبار تعالى ذكره

فقد باستيفاء الحقوق لأصحابها، فوالله لا تطأ قدمك الجنة إن كنت من أهلها قبل أن يقتص لمن ظلمتهم، ولو كانوا كفاراً من أهل النار فكيف بالمسلمين؟



نعم، هذا هو الديوان الذي لا يغادره الله، أو لا يتركه الله، أنت عنه اليوم لاهٍ، لأن ليس له طالب، ولا له من يأخذ به، غير أنّ له من الله طالب، و المتمسك بحقه يوم القيامة كثير، فهل رددت لأصحاب الحقوق حقوقهم؟



و هل طلبت العفو من كل من ظلمتهم؟

و هل تستطيع أن تبات ليلتك مطمئناً أن ليس لأحد من الناس عندك حق؟

إن استطعت فافعل.





﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ
أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا
تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾
[الزُّمَر: ٥٣]





قد يكون للواحد منّا بعض الذنوب التي قد تقعده عن الخير، ويجعلها الشيطان مدخلاً لتثبيطه عن الخير، فإياك و الشيطان.

إن مداخل الجنة كثيرة كما سبق بعضها، فعلى العبد الاجتهاد في دخولها من أيسر السبل عليه و أحبها لديه.

وأما الذنوب فالواجب أن يجتهد العبد أن لا يراه الله على معصية، فإن أبى أو ضعف فعليه بثلاثة:

الأول: عدم الإصرار، فإن الإصرار يصير الصغيرة كبيرة، و الله عز وجل امتدح من هذا حالهم فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران:١٣٥].



الثاني: التوبة و الاستغفار كلما وقعت في معصية، ولو تكررت، فلا تجعل تكرارها مانعاً من تجديد التوبة، فقد صح عنه ﷺ: «أن رجلاً أذنب ذنباً فقال: أي رب أذنبت ذنباً فاغفر لي، فقال: عبدي أذنب ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب و يأخذ به، قد غفرت لعبدي، ثم أذنب ذنباً آخر، فقال: رب إني عملت ذنباً فاغفر لي، فقال: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب و يأخذ به قد غفرت لعبدي، ثم عمل ذنباً آخر، فقال: رب إني عملت ذنباً آخر فاغفر لي، فقال الله تعالى: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب و يأخذ به، أشهدكم أني قد غفرت لعبدي فليعمل ما يشاء»[1].

الثالث: الاستسرار بالمعصية، فإن بعض الناس يأتيه الشيطان من مدخل الإخلاص، فيقول له: وهل أنت تخاف من الله أم من الناس؟ و يحسّن له نعل المعصية جهاراً و هذا من حيل إبليس لعنه الله.

فإن العبد إذا فعل المعصية أمام الناس فقد تجرأ على اللّه، هذا أولاً.

وثانياً: هتك ستر نفسه، و اللّه يحب الستر.

و ثالثاً: أنه يغلق على نفسه باب التوب.

(١) أخرجه (ح ٧٥٠٧)، و مسلم (ح ٢٧٥٨).



فإن الشيطان يأتي إلى المجاهر فيخجله من التوبة، و يقول له: ماذا يقول عنك الناس؟ هل الدين لعبة بيدك، يوم صالح و يوم طالح ؟ سيقول الناس: إنك منافق؟ أنت الذي كنت بين الكأس و الطار تصبح بين لحظة و أخرى تدّعي التديُّن ؟ و هكذا يستمر به حتى يهلك العبد.

و أما الاستسرار فلا يعلم عنك أحد إلا الله، تعصيه فيسترك، و تستغفر فيغفر لك، و صدق رسول الله ﷺ: «**كل أمتي معافى إلا المجاهرون**»[1].

ثم إياك أن يدبّ اليأس إلى قلبك

واعلم أن لكل جواد كبوة، و لكل فارس سقوط، و الموفّق من يجعل من سقوطه دفعه إلى النجاة، و العودة إلى المضمار، أكثر جدية، و قوة، و إصراراً على التعويض و الزيادة، و قد قال ﷺ: «**مثل المؤمن كمثل خامة الزرع، من حيث أتتها الريح تفيئها، فإذا اعتدلت تكفأ بالبلاء**»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (ح ٦٠٦٩).

(٢) أخرجه البخاري (ح ٥٦٤٤).

وقد تساءل ابن القيم رحمه الله : هل يستطيع العبد أن يعود بعد التوبة إلى ما كان عليه من الإيمان أم لا؟

وبعد أن حكى الخلاف فيها قال:«وسمعت شيخ الإسلام رحمه الله يحكي هذا الخلاف، ثم قال: و الصحيح أن من التائبين من لا يعود إلى درجته، و منهم من يعود إليها، ومنهم من يعود لأعلى منها فيصير بعد الذنب خيراً مما كان قبله.

قال: وهذا بحسب حال التائب بعد توبته، و جدّه و عزمه و حذره و تشميره، فإن كان ذلك أعظم مما كان له قبل الذنب عاد خيراً مما كان و أعلى درجة.

و إن كان مثله عاد إلى مثل حاله، وإن كان دونه لم يعد إلى درجته و كان منحطاً عنها، و هذا الذي ذكره هو فصل النزاع في المسألة »[(١)].

بل قال كثير من السلف: «إن التائب توبة نصوحاً خير من الذي لم يعص، وفيه خلاف ذكره ابن القيم»[(٢)].

---

(١) مدارج السالكين(١ / ٣١٨).

(٢) المرجع السابق(١ / ٣٢٠-٣٣١).



وحكى عن بعض السلف قوله: « قد يعمل العبد الذنب فيدخل به الجنة، و قد يعمل الطاعة فيدخل بها النار، كيف ذلك؟ قال: يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه إن قام، وإن قعد، وإن مشي ذكر ذنبه، فيحدث له انكساراً و توبة واستغفاراً و ندماً، و يكون ذلك سبباً لنجاته. و يعمل الحسنة فلا تزال نصب عينيه إن قام، وإن مشى، كلما ذكرها أورثته عجباً و كبراً و منة، فتكون سبباً لهلاكه »[١].



و المطلوب في كل ذلك الموازنة بين الخوف و الرجاء، خوف بلا قنوط من رحمة الله، ورجاء بلا أمن من مكر الله.

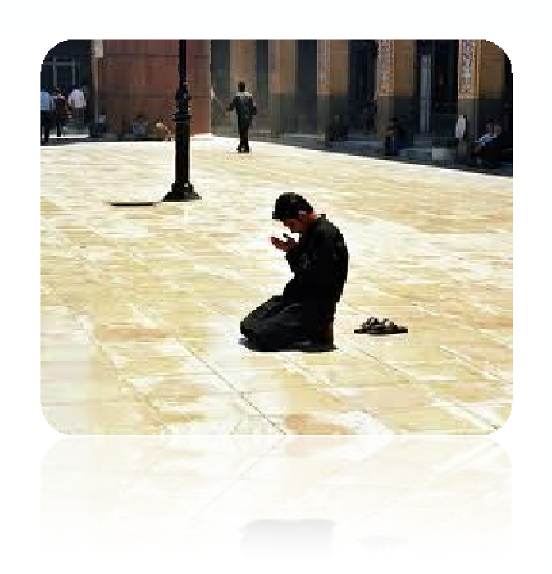
---

(١) المرجع السابق(١ / ٣٢٥).



«واعلم أن الله تعالى يدفع عقوبة جهنم عن العبد بأسباب عشرة:

الأول: التوبة، فإنها تجنبُّ الذنوب،



وسبب عظيم للنجاة من النار.

قال تعالى:

﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾[مريم:٦٠].

و قال سبحانه و تعالى:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾[البقرة:١٦٠]، و التوبة النصوح هي الخالصة.

الثاني: الاستغفار، قال الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[الأنفال:٣٣].

و الاستغفار تارة يذكر وحده، و تارة يذكر مع التوبة، فإذا ذكر أحدهما دخل فيه الآخر، وإذا ذكرا سوية فالاستغفار طلب وقاية شر ما مضى، و التوبة: الرجوع و طلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله.



الثالث: الحسنات، فإن الحسنة بعشر أمثالها، و السيئة بمثلها، فالويل لمن آحاده أعشاره.



قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[هود:١١٤].

و قال ﷺ: «و اتبع السيئة الحسنة تمحها»[١].

الرابع: المصائب الدنيوية، قال ﷺ: «ما يصيب المؤمن من وصب، ولا نصب، ولا غم، ولا هم، ولا حزن، حتى الشوكة يشاكها إلا كفّر بها من خطاياه»[٢].

الخامس: عذاب القبر.

السادس: دعاء المؤمنين واستغفارهم، في الحياة و بعد المهات.

السابع: ما يهدى للميت من ثواب الصدقة أو القراءة أو الحج.

---

(١) أخرجه احمد (٥/ ١٥٣)، و الترمذي (ح ١٩٨٧) وقال: حسن صحيح.

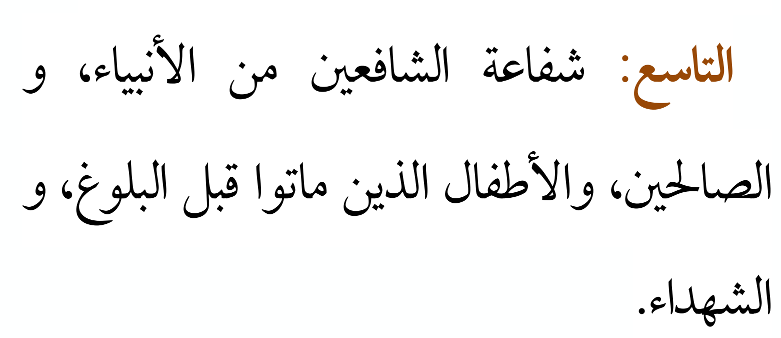
(٢) أخرجه مسلم (ح ٢٥٧٣).



الثامن: أهوال يوم القيامة و شدائده.

ما ثبت في الصحيح عنه ﷺ: «**يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة و النار، فيقص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذّبوا و نقوا أذن لهم في دخول الجنة...**»(١).





التاسع: شفاعة الشافعين من الأنبياء، و الصالحين، والأطفال الذين ماتوا قبل البلوغ، و الشهداء.

العاشر: عفو أرحم الراحمين.

كما قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[النساء:٤٨]

فإن كان ممن لم يشأ اللّه أن يغفر له لعظم جرمه فلا بد من دخوله النار، ليخلص إيمانه من خبث معاصيه، فلا يبقى في النار من في قلبه ذرة من إيمان»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (ح ٦٥٣٥).

(٢) انظر هذه الأسباب ببسط أكثر في الفتاوى لشيخ الإسلام، (٧/ ٤٨٧ -٥٠١).





صدقاً، لقد كلّ قلمي، أخي :

إن قعدت بك نفسك عن كل ما تقدم، ولم تنهض همتك، ولم ينشط طموحك إلى شيء مما سبق أو مثله، فاعلم أنه:



دمت بخير ..

محبك أحمد بن صالح الزهراني